السيرة الغيرية الوثائقية
دراسة تحليلية على منجز محمد بنشريفة
في ضوء العتبات النصية
"ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية" أنموذجا

د. إسلام ماهر فرج عمارة

دكتوراه الدراسات الأدبية في كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

كلية الإلهيات، جامعة أولوداغ بورصة، تركيا

Dr. Eslam Maher Farag OMARA
Ilahiyat Fakültesi Uludağ Bursa Üniversite

الملخص:

"السيرة الغيرية الوثائقية دراسة تحليلية على منجز محمد بنشريفة في ضوء العتبات النصية (ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية) أنموذجا" عنوان لهذه الصحائف التي تتخذ من الكتاب المذكور أنموذجا للتحليل وميدانا للتطبيق، وتجمع دراستنا هذه بين ثلاثة المناهج: التحليلي، والوصفي المقارن، فتبتدئ بمقدمة تمهيدية ثم تضطلع بتحديد مشكلة الدراسة، وطرح سؤالاتها بغية استنباط المنهج الذي اتبعه باني السيرة في جمع المادة، وغربلة الرواية، وتوثيق الأحداث وتناولها حجاجيا وسياقيا وتأويليا، ثم تمد وشائجها لبيان مدى تعالق السيرة مع العتبات النصية، وكيفية تصميمها وفق البنية الكبرى المتمحورة حول تقديم سيرة لمجمل حياة ابن رشد الحفيد، والبنية الصغرى المتمركزة حول معلومات مبثوثة في تضاعيف الفصول حسب تراتبية ورودها على المستوى المعرفي من جهة؛ وعلى طرائق التنظيم والتأويل والتنسيق من جهة ثانية، وعلى التعاطي مع النص في ضوء الاشتغال بالسيرة من جهة ثالثة، ثم تختتم الدراسة بخاتمة تحليلية توجز أهم ما خلصت إليه من نتائج، وهي في مجملها تقترب كثيرا مما انتهى إليه المؤلف من إضاءة القارئ بما تمثله في كتابة السيرة الوثائقية. والدراسة إذ تتناول منهج بنشريفة في كتابة السيرة الوثائقية فإنما تحاول استبطان فكره، والتدسس إلى ما وراء السطور والاستئناس بعمق التحليل، وحدس الفرضيات، وإعمال الأدوات، وتأمل فنية البناء؛ لاستنباط معالم المنهج، واستلهام النهج الأمثل في كتابة سيرة غيرية وثائقية.

كلمات مفتاحية:

سيرة غيرية، وثائقية، تحليل، تطبيق، محمد بنشريفة، ابن رشد الحفيد، عتبات نصية

An Analytical Applied Study of Mohamed Bencherifa's Works in Light of Textual Thresholds "Ibn Rushd Al-Hafid: A Documentary Biography" as a Model

Dr. Eslam Maher Farag OMARA

Abestract:

'Documentary Heterobiography: An Analytical and Applied Study on Mohamed Bencherifa's Work in the Light of Textual Thresholds' is the title of this paper, which takes Bencherifa's work "Ibn Rushd the Grandson: A Documentary Biography" as a model for analysis and a field of application from his entire heterobiographical output, combining three approaches: Analytical, descriptive, and comparative-descriptive. The study begins by defining its issue, constructing its themes, and posing its questions in order to extract the methodology followed by the biographer in collecting material, sifting the narrative, documenting events, and addressing them argumentatively, contextually, and hermeneutically, and extends links to show the extent to which the biography relates to textual thresholds and is designed according to its grand structure centred on presenting a faithful biography of Averroes. and its microstructure centred on the information scattered throughout the chapters according to the order in which it is presented on the cognitive level on the one hand; on the methods of organisation, interpretation, and coordination on the other hand; and on dealing with the text in light of the work of the biography on the third hand, before concluding with an analytical conclusion of the most important findings.

Keywords:

Documentary/Analysis/Application/Achieved/Mohamed وBiography Bencharifa/Ibn Rushd Al-Hafid/Text Thresholds.

مقدمة:

السير الأدبية ذاكرة الأمة ومرآتها، وكلمة باقية في عقبها، يتكئ عليها الوعي الجمعي ما اختلف الملوان؛ تقوية لجذوره، وتعزيزا لحضوره، وترسيخا لهويته، وتأكيدا لأصالته، وهو ما حدا بالقارئ أن ينفتح على الآخر فيطلع على أشهر ما كتب عنده في السير عالميا فكان منها؛ "اعترافات" جان جاك روسو صاحب أول وأجرأ سيرة ذاتية تفصيلية، أو جان بول سارتر في بساطته وعفويته وصدقه في "سيرتي الذاتية"، أو في "قصة حياتي العجيبة" للمرأة الحديدية ذات الإرادة الخارقة هيلين كيلر، أو جون ستيوارت مل، أو سير إدموند غوس.

بيد أنه كان نزاعا إلى بيئته والركون إلى هويته؛ فعرف طائفة غير قليلة من السير الذاتية العربية في العصر الحديث، فكانت "زينب" بابة ولج إليها محمد حسين هيكل لجنس أدبي راده، ونول نوله طه حسين في"الأيام" التي عكست رحلة حياته في أجزائها الثلاثة، بدءا من طفولته، مرورا بأزهريته، وأخيرا ببعثته وتمام مسيرته، أو في ذاتية أخرى لم يكتب لها الصدور في جزأين كما تغيا صاحبها؛ إذ تخطفته يد المنون، فظهرت "أنا" و "سارة"، و"حياة قلم" تروي حياة العقاد ومسيرته التي كانت انعتاقا من التمركز حول الذات، وانفتاحا على الأحداث، وكشفا عن "الانتماء"، وهو اتجاه اندغم فيه الذاتي بالغيري اندغاما ظهر فيه إحساس الكاتب بمن حوله وما حوله على نحو يرتد بنا إلى ما سجله أسامة بن منقذ في "الاعتبار" وتصويره البديع للفروسية العربية زمن الصليبيين، وتسجيله الدقيق لحياة المسلمين وحياة الصليبيين في عصره، أو فيما كتبه إبراهيم المازني من سيرته في "إبراهيم الكاتب"، وسيرة بنت الشاطئ في "الجسر"، وشوقي ضيف في "معي"، وعمر التلمساني في "ذكريات لا مذكرات، وثروت أباظة في "ذكريات لا مذكرات"، وتوفيق الحكيم في "زهرة العمر"، ومحمد شكري في "الخبز الحافي"، وفدوى طوقان في"رحلة جبلية"، وميخائيل نعيمة في "سبعون"، وعبدالفتاح بومدين في "حكاية الفتى مصباح"، وإحسان عباس في "غربة الراعي"، وعبدالحميد كشك في "قصة أيامي"، وصلاح عبدالصبور في "حياتي

في الشعر"، أو في ذلك التحليل الفلسفي لعبدالوهاب المسيري في "حياتي الفكرية"، أو في ثلاثية زكي نجيب محمود التي سرد فيها حياته معبرا عن خلجات نفسه وأحاسيسه قبل الأحداث التاريخية مستبطنا مشاعره الدفينة في "قصة نفس" ١٩٦٥، فساردا تطوره الفكري وتبنيه فلسفة "الوضعية المنطقية" في "قصة عقل" ١٩٨٤، ثم مستعرضا شهادته الثقافية والعلمية على عصره في حصاد السنين ١٩٩١ وغيرها من السير. ولعل الكثير منها اكتنف زواياها بعض الغموض، وأحيطت ملابساتها بشيء من الضبابية رغم جرأة أصحابها، لكنها بقيت دون الكشف الذي امتازت به اعترافات "روسو".

وعلى الجانب الآخر، تبرز السيرة الغيرية التي يتولى فيها كاتبها رسم صورة لشخصيات بارزة؛ يكشف فيها الغطاء عن نبوغهم، وأسرار عملهم، وتماوجات حياتهم، وما يجلل الشخصية من قيم رفيعة، فعرف الأدب العربي السير الغيرية من خلال كتب التراجم والطبقات قديما، وعرف ما كتبه ميخائيل نعيمة عن "جبران" حديثا؛ مما عد فتحا للون جديد آنذاك، لتجيئ محاولة عبدالرحمن منيف في تناوله "عروة الزمان الباهي"، إضافة تعضد ذلك المسار.

على أن السيرة الذاتية نقل مباشر؛ فكاتبها ذاتي في المقام الأول، يجوس خلال نفسه، ويسلط الأضواء على شخصه، فالذات ميدانه، بيد أن القاعدة ليست مطردة ولا على إطلاقها[١]؛ فثمة من يرون أن "نجاحه يقاس بنسبة الذاتية فيما كتب"[٢]، وهو ما يحتم عليه الموضوعية في نظرته لنفسه، فلا ينساق وراء غرور النفس وتعلقها بذاتها وحبها لإعلاء شأنها، وانتقاصها من أقدار الآخرين"[٣]، أما السيرة الغيرية فتضبط عمل مترجمها، ولا سبيل أمامه سوى الشواهد والوثائق والشهادات، مما يستوجب إلماما بالحقائق واستيعابا لها وحكما عليها، ثم يؤلف بينها، ويريق

[١] – جابر قميحة، منهج العقاد في التراجم الأدبية، (القاهرة، مكتبة النهضة العربية، ١٩٨٠)، ٢٥.
[٢] – إحسان عباس، فن السيرة، (بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٦)، ١١٢.
[٣] – إحسان عباس، فن السيرة، ص١١٠.

عليها من مجموع ما انتهى إليه؛ بإحكام في الأسلوب، وموضوعية في التناول؛ فيكون "نجاحه بمقدار تجرده وغيريته"[١].

وإذا كانت السيرة الغيرية تتماس مع التاريخ في اعتمادهما على الحقائق والوثائق والمدونات والروايات والأسانيد القطعية الثبوت؛ فإنها تنماز عنه بتجردها من الوقائع التاريخية كأحداث؛ فعند إيراد الواقعة التاريخية؛ تجرد من كل ما "يدعو إلى الحدس والتخمين من أسرار النفس وحوافزها، فتبقى عارية إلا من الحقيقة وحدها، فهي التي تضفي عليها رداء التاريخ وبهجته، وهي التي تحببها إلى النفس الإنسانية حين تحدوها غريزة حب الاستطلاع إلى معرفة ما جرى"[٢]، على أن السيرة الغيرية تزيد عليه بتماسها مع التأثير الدرامي لإثارة المتلقي.

وقد عرفت الحضارة العربية الإسلامية السيرة الذاتية والغيرية وإن "لم يتبلور التصور الذهني بما يتيح (لأي منهما) الانفراد بمصطلح نقدي مخصوص"[٣]، وقد استوعب النقد العربي الحديث الفارق بين المصطلحين الغربيين المركبين تركيبا مزجيا فحكاهما لفظا فقال: السيرة الغيرية لـ: biography والسيرة الذاتية لـ: autobiography[4]، ويعني الثاني أنه يتناول سيرة شخصية ما فيدرسها دراسة فاحصة من خلال الوثائق والمخطوطات والشهادات، ويعمل فيها النقد والتقويم كيما تكون بريئة من الخطأ والزلل والتحريف والتصحيف. ولأهمية هذا الموضوع، فستتم دراسته تحت عنوان: السيرة الغيرية الوثائقية دراسة تحليلية على منجز محمد بنشريفة في ضوء العتبات النصية "ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية أنموذجا") على النحو الآتي:

---

[١]– إحسان عباس، فن السيرة، ص١١٢.

[٢]– حسين فوزي النجار، التاريخ والسير، القاهرة، دار القلم، ١٩٦٤، ص١٥.

[٣]– عبدالسلام المسدي، النقد والحداثة، مع دليل ببليوجرافي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٣، ص١١٤.

[4]– عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان، ١٩٩٢، ص٣.

مشكلة الدراسة وفرضياتها:

إذا كان كتاب السير والتراجم والطبقات قد كتبوا سيرا غيرية فثمة منهج اعتمدوه، تفترض الدراسة أن القدماء حين كتبوا سيرا غيرية ساروا على منهج توثيقي وإن لم يبينوا عنه أو يعنوا أنفسهم بذكر تفصيلاته؛ وإن كان القارئ يلمح آثاره بين السطور ومن ورائها، وتفترض أن بنشريفة استقرأ السير الغيرية لكنه اختط لنفسه منهجا تحليليا حجاجيا نقديا بسط من خلاله للقارئ حياة أبي الوليد، فما المنهج الذي صنعه بنشريفة في كتابة السيرة الوثائقية؟

سؤالات الدراسة:

بما أن الحديث منصب على "ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية" فستقتصر الدراسة عليه رعاية لحدود هذه الصفحات التي تسعى للإجابة عن ثلاث تساؤلات:

- ما سر اهتمام بنشريفة بكتابة سيرة غيرية وثائقية عن ابن رشد دون غيره؟
- ما الأسس التي اتكأ عليها في اختيار أصحاب السير الغيرية بعامة؟
- ما منهج بنشريفة في كتابة السيرة الغيرية وثائقيا؟

محاور الدراسة:

- السير الأدبية في نتاج بنشريفة وأسسه في اختيار أصحاب التراجم.
- مصادر بنشريفة في جمع المادة.
- منهج بنشريفة في كتابة السيرة الغيرية وثائقيا.

اتبعت الدراسة ثلاثة مناهج: المنهج الوصفي، والمنهج الوصفي المقارن، والمنهج التحليلي، وتمثل الأولان في وصف صنيع بنشريفة ومصادره التي اعتمد عليها في جمع سيرة ابن رشد ومقارنتها بالسير الأخرى، ونقد التصورات الشائعة وتقويمها بإثبات صحيحها ونفي سقيمها، أما ثالثهما فتمثل في تحليل الكتاب وفق العتبات النصية الحديثة من حيث بنيته الكبرى برسم سيرة موثقة عن أبي الوليد، ومن حيث بنيته الصغرى المتمركزة حول معلومات الفصل وترتيب ورودها على

المستوى المعرفي من جهة؛ وعلى طرائق التنظيم والتأويل والتنسيق من جهة ثانية، وعلى التعاطي مع النص في ضوء الاشتغال بالسيرة من جهة ثالثة، ثم ختمت الدراسة بنتائج خلصت إليها تقترب كثيرا مما انتهى إليه المؤلف من إضاءة القارئ بما تمثله في كتابة السيرة الوثائقية. والدراسة تتناول منهج بنشريفة في السيرة الوثائقية –وهي لون من ألوان السير الأدبية– في محاولة لاستبطان فكره، والتدسس إلى ما وراء السطور والاستئناس بعمق التحليل، وحدس الفرضيات، وإعمال الأدوات، وتأمل فنية البناء؛ لاستنباط معالم المنهج، واستلهام النهج الأمثل في كتابة سيرة غيرية وثائقية.

منهج الدراسة: مصطلحات الدراسة:

السيرة الغيرية الوثائقية:

هي بحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ، وكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها، والأحداث التي واجهها في محيطه، والأثر الذي خلفه في جيله"[١] بصورة جذبت التاريخ إليه، وسلطت الأضواء عليه، "فتبرز معالم حياته، لتفصح عن سر نبوغه وتفرده، وما اعتور عقله من فلتات الذكاء الفذ والخيال الجامح، وأبرز ما فيها هو العمل الكبير الذي قام به صاحبها، والأثر الفعال الذي تركه بعمله في الحياة الإنسانية، وبقدر ما يعظم هذا العمل ويعظم تأثيره بقدر ما يحفل به التاريخ فيقص خبره ويروي سيرة صاحبه"[٢]. وإذا كان الاسم الذي يطلقه الإنسان على الشيء الواحد هو الذي يخلع عليه هويته الخاصة؛ فحين نقول:"السيرة الذاتية" فإنها تتضمن هوية هذا الجنس الأدبي الذي يختلف عن نظيره من السيرة الإنسانية وهو فن "السيرة الغيرية". وعلى ذلك فإن فن السيرة له أشكال مختلفة تعكس التنوع والثراء، ليس على مستوى نوعيه الذاتي والغيري فحسب؛ بل يمتد إلى مادة السيرة وموضوعها وتقنيتها ووظيفتها، وطرائق عرضها، وغايات كتابها.

[١]– حسين فوزي النجار، التاريخ والسير، (القاهرة، دار القلم، ١٩٦٤)، ١٤.

[٢]– حسين فوزي النجار، التاريخ والسير، (القاهرة، دار القلم، ١٩٦٤)، ٦٣.

(ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية):

كتاب صنعة محمد بنشريفة، تناول فيه سيرة ابن رشد الحفيد مما توافر عليه من وثائق ومخطوطات وشهادات وكتب عرضها، وأنعم النظر فيها بحثا وتفكيرا ونقدا وتقويما وتأويلا وتعقيبا. وقد تخذته الدراسة أنموذجا تستبطن منه منهج المؤلف في بناء السيرة الغيرية الوثائقية جنسا أدبيا له طريقته وأسلوبه وأدواته التي تتداخل مع التاريخ من جهة ومع النص السيري الذاتي/ الغيري من جهة ثانية، ومع التأثير الدرامي من جهة ثالثة.

العتبات النصية:

عتبات النص أو الهوامش النصية بنيات لغوية وأيقونية منها ما يسبق النص ومنها ما يعقبه، تتضافر جدائلها لتنتج خطابا واصفا ممهدا للنص ومعرفا به، طائفا بمضامينه وأشكاله وأجناسه، يستميل القارئ من خلال: اسم المؤلف، والعنوان، والأيقونة، ودار النشر، والإهداء، والاقتباس، والمقدمات بأنواعها، والخاتمة بأضربها، والهوية، وغير ذلك. فهي "أقرب إلى التأويل من النص نفسه؛ لأنها تعطينا تأشيرة الدخول إلى عالم النص لنتجول فيه"، وتضطلع بدور التهيئة والإثارة والتحفيز، فيستفتح بها العمل ويستهل، بيد أن لها بنيات خاصة مغايرة للنص تركيبيا وأسلوبيا وإن كانت متفاعلة معه دلاليا وإيحائيا بحكم دوارنها في فلكه وارتباطها به، تستمد منه وتبني عليه– وتتفاعل معه دون أن تحل محله أو تتداخل في دقيق نسيجه، فهي وسيلة إلى عوالم رحيبة وفضاءات أرحب[1]، وليس لمبتغيها أن يطغى بها على ما يتوسل فيها من استكناه النص وكشف خبيئات مواطنه الفنية وخصائصه الوظيفية والدلالية.

[1]– تتبع د. عزوز علي إسماعيل المعنى المعجمي لكلمة عتبات، وتقصاه في مدونات التراث العربي القديم كالجاحظ وابن أبي الإصبع والمقريزي والتهانوي ومن بعدهم، وقارن بين الشرق والغرب في تناولهما له، لاسيما عند جيرار جينيت وشارل كريفل، وهنري ميتران وليو هوك. عتبات النص في الرواية العربية، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣)، وحاشية "المعجم المفسر لعتبات النصوص موسوعة فكرية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٥. عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، يوسف الإدريسي، (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ٢٠١٥)، ٢٣.

ثانيا: الموضوع:

-مصادر السيرة:

جمع المؤلف مادة السيرة من مصادر عدة، ومراجع شتى -بعضها سبق نشرها، وبعضها لم يكن قد نشر بعد- فضلا عن توظيفها وربط أحداثها بعضها ببعض، واستنباط ما فيها من دلالات، فاتبع منهجا في الجمع والتحقيق، والنقد والتقويم، وتمحيص الروايات؛ حتى بات مصدرا في بابه، ومعينا ثرا لوراده، وأنموذجا يحتذى في كتابة السير الغيرية الوثائقية وتراجم الأعلام بيد أنه أعاد نشر المادة مع تصويبات وتحقيقات وتعليقات، "بعضها مما لم يسبق نشره أو الاستفادة منه، وبعضها الآخر أعاد نشره مع تصويبات وتحقيقات وتعليقات" كما في مقدمته. وسترد هذه المصادر تباعا في السطور القادمة.

١-منهج الكتاب:

إن كان من اليسير قراءة التراث فمن العسير استبطانه واستنطاقه ليبوح بما يعن لنا ويثير عقولنا، ولا بد من التحلى بالأناة، وإدامة النظر، وإجالة الفكر، ومناجاة النص حين يستغلق، وملاطفته حين يستعصي، وترويضه كلما تأبى. ولربما يعتسف البحث النتائج فيلقي بها قبل الاستدلال عليها زعما بصحة ما افترضه، فثمة جهد وافر، وعمل شاق دائب أنفقه بنشريفة في جمع المادة، وترتيبها، وتقسيمها، وتصنيفها، وتبويبها، ونقدها وتقويمها، ولا غرو فقد جمع ما كتب عن ابن رشد من مصادر كثيرة ومراجع جمة، فقرأها واستوعبها، وهضمها وتمثلها فهما واستنباطا، وغربلها وعكف عليها تحليلا وتشريحا وتقويما، وربطا لمقدماتها بنتائجها، وأسبابها بقرائن لها تستدعي ضوابط صارمة تقرها قواعد البحث، ثم تعقب الأخبار، وفسر الأحداث، ووظف الأدوات للتيقن من صحة الاستنباطات، وعمق التحليلات، ودقة ما توصل إليه من نتائج، حتى انتهى به المطاف إلى تقديم وثيقة علمية تطبيقية تكتنز خصائص فنية في أصول كتابة السير الوثائقية. مختطا طريقا وضع فيه صوى وعلامات كيما يكون مأنوسا لعقبه، ويحسن بهذه الدراسة عرض العمل

من خلال العتبات النصية التي سبق التعريف بها لتكون كاشفة للنص السيري، وتمثلت في الآتي:

أ. عتبة العنوان التاريخي:

"ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية" عنوان تاريخي؛ لأنه يرتد بمتلقيه إلى حقبة زمنية تاريخية عاشها ابن رشد في الغرب الإسلامي، والتاريخية تتمثل في شخصية ابن رشد الحفيد القرطبي الذي عاش بين (520هـ/١١٢٦م–٥٩٥ هـ/١١٩٨م) وكان قاضي القضاة فيها، وتتجلى في "سيرة و "وثائقية" وما السيرة إلا رحلة في أعماق التاريخ، ونعتها بـ"وثائقية" غالبا ما يربطها بوثائق ومخطوطات قديمة، وعلى ذلك فإن العنوان التاريخي عتبة من العتبات النصية الممهدة للنص.

وقد أشار بنشريفة في هذا الصدد إلى مشروع فكري وثيق الصلة به يشرف عليه الدكتور الجابري، وما مصنف بنشريفة واختياره ابن رشد إلا حلقة دائرة في هذا السياق من حيث إن شخصية ابن رشد ذات عطاء علمي وإشعاع فكري وصفاء روحي، وهو ما يفسر فيض الدراسات التي اضطلع بها باحثون كثر؛ وتناولهم له من زوايا مختلفة، ينضاف إلى ذلك أن بنشريفة سبق له أن تناول صاحبه في بحث موسوم بـ "نصوص جديدة حول ابن رشد"[١]، ثم جاد عليه الزمن فتحصل على وثائق ومعلومات، وتحقيقات وتعليقات من مظان مختلفة، لم يسبق نشرها، وهو ما يلحظه القارئ في صنع بنشريفة حين قدم بين يدي تقديمه مسردا يبين فيه عن احتفاء الأوساط العلمية، والمنتديات الثقافية، والملتقيات الأدبية في حواضر عربية وأوربية بابن رشد: سيرة، وفلسفة، وكتبا، وآراء..، فارتأى ضرورة "إعداد هذا المجموع الذي يضم بين دفتيه نصوصا متعددة، ومواد مختلفة تنفع في كتابة سيرة مفصلة وموثقة لأبي الوليد التي لا تزال في حاجة إلى البحث والدراسة والكشف والإبانة"[٢]؛ فالعنوان التاريخي عتبة نصية معبرة عما راده بنشريفة وهو يتناول شخصية تاريخية.

١– ضمن ندوة ابن رشد الطبيب والفقيه والفيلسوف، الكويت: منشورات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، ١٩٩٥.

٢– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٦.

ب. **عتبة اسم المؤلف(Name of the auther)**:

اسم المؤلف عتبة من العتبات النصية، تستقبل القارئ إثر العنوان، تلفت عناية المتلقي إلى صاحب العمل إن كان مشهورا أو مغمورا، وتحدد موقفه منه قربا أو بعدا، إقبالا أو إعراضا، اتفاقا أو اختلافا، فاسم المؤلف يثير انتباه القارئ، ومحمد بنشريفة واحد من أعلام الثقافة العربية المعاصرة المبرزين بما خلف من تآليف ثرية، وتصانيف غنية، غذى بها المكتبة العربية، ورفدها بنتاج غزير في التفسير والتاريخ، والفقه الأدب، والتراجم والسير، وتحقيق مصادر أصيلة في التراث الأدبي مشرقيه ومغربيه وأندلسيه في نتاج متنوع يلون صفحات العطاء العلمي، ويبرز صور تلقيه في الوعي الجمعي للقارئ العربي، فضلا عما أولاه للأدب المغربي الأندلسي من عناية فائقة رصد فيه جوانب التأثر والتأثير بين المغربي وصنوه المشرقي بفيض من البحوث والدراسات.

ثم إن بنشريفة في طبقة متقدمة من العلماء المحققين الذين لهم تمرس بطرائق التعاطي مع بحوث في بابها لاسيما تراجم أعلام المغرب الإسلامي، فضلا عن أنه شغل منصب محافظ بالخزانة العامة بالرباط، فتتوافر بين يديه نوادر المخطوطات، وذخائر التحقيقات، وقد صنف بحوثا ضافية جعلته عميد الدراسات الأندلسية المغربية، وفوق ذلك؛ فإن له اهتماما خاصا بابن رشد الحفيد، فلا غرو أن يتلقى جمهرة الباحثين مصنفاته؛ ثقة في تحقيقاته، وما جفلهم إليها إلا إيمانا بعدم إيلائه جهدا في الحفر والتنقيب والبحث والتحقيق، ولذا؛ فإن للمتلقي رغبة في الاحتفاء بمصنف محقق عن أبي الوليد صنعة بنشريفة؛ ليضم إلى سير أخرى سبق إليها. ويتبدى للمتلقي غزارة نتاج بنشريفة في مضمار السير الغيرية بصورة معجبة من ناحية أولى، ثم لكونها دائرة في فلك الشمول الإنساني والفضاء المعرفي الذي يتغياه من ناحية ثانية. وعليه؛ فإن اسم المؤلف عتبة نصية؛ لكونها تحمل اسمه يعرف بها وتعرف به.

ت. **عتبة صاحب السيرة (biography)**:

اسم صاحب السيرة المتناولة عتبة نصية لها تأثير في المتلقي من حيث إنها تتتبع مسيرته وتصف شخصيته، وتعكس بيئته، وتدرس حالته في ضوء المنهج العلمي النفسي والعقلي والسلوكي والاجتماعي([1])، وتمهد الطريق للولوج إلى عالم النص الذي عكف عليه مؤلف السيرة، ذلك أن "تاريخ الحياة من البيانات التي يمكن الاستعانة بها في البحث من حيث إنها تتضمن التاريخ التطوري للفرد منذ نشأته واستجاباته للمؤثرات التي مرت به منذ بداية حياته وكان لها أثر في تكوين قيمه واتجاهاته"([2])، وقارئ سيرة ابن رشد وفهم طبيعته ونفسيته وشخصيته ومحنته يجد فيها تفسيرا لكثير من القضايا المتشابكة مع النصوص السيرية الأخرى فتتفتح لنا كثير من مغاليق النص الهدف، ولا يمكن تبني وجهة النظر التي تنغلق على النص وتستبعد الجوانب المحيطة به تأثيرا وتأثرا كما يرى البنيويون. لكن؛ لماذا اختار بنشريفة ابن رشد دون غيره؟.

الاختيار –بعامة– عسر ذو بأو؛ يسبقه جمع وتمحيص، واصطفاء للنصوص، وكأين من أسماء أعلام تقفز أمام ناظري الباحث ليختار؛ وقد وضع بنشريفة أسسا في اختيار أعلامه، ويعنينا هنا ابن رشد، فثمة أسباب جذبته إليه؛ منها:

تأثر بنشريفة بشخصية ابن رشد والتئامه معها فكريا وعاطفيا، وانسجاما روحيا، وآيته تعبيره عن حبه له تارة، وتولي الدفاع عنه بتحويل الدفة لصالحه والانتصار له، واستنقاذه وسرعة الخلوص به من متاهات تأويلات فاسدة وحجج داحضة تارة أخرى. لم يكن بنشريفة كاتبا فحسب أو جامعا كما اتفق، بل محبا لصاحبه في المقام الأول على طول ما بينهما من عهد، بيد أنك تشعر أن ثمة التقاء في الأفكار، والتئاما في الآراء، وتناغما في المشاعر، وكأن آصرة علوية وشجتهما،

[1]– أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات الدراسات الإنسانية، (بتصرف يسير) ص٤٧.

[2]– المرجع السابق، ص٤٧. والمعجم المفسر لعتبات النصوص، د. عزوز علي إسماعيل ص٢٠٦.

فجمعت المحب بالمحبوب في عناق ووثاق، أفيعزى إلى توارد الخواطر، أم وقوع الحافر على الحافر، أم تعارف أرواح وائتلاف أنفس؟ أم كل أولئك جميعا؟

لكن القارئ يدرك بين أعطاف السيرة ومكامنها أن ذلك الحب لم يكن ليعلو على الحق المنشود، فحب بنشريفة شريف، لا تعصب فيه ولا هوى، وإنما "دفاع عن ابن رشد النموذجي في وجه ابن رشد النص"(١)، وآيته أن بنشريفة لم يرض لصاحبه إقحام نفسه في العصبيات والمشاحنات التي لطالما كانت بين العرب والبربر، فحينما قال ابن رشد في **تلخيص كتاب الخطابة:** "إنا نبغض البربر ويبغضوننا"، قال بنشريفة معلقا: "وسواء أكان مثال ابن رشد يدل عن حقيقة أم يعبر عن موقف فلعله كان في غنى عنه"(٢).

– تتلمذ خلق كثير على يدي ابن رشد، نبغ منهم علماء ربوا على أربعين عالما في النحو، والفقه، والمنطق، والبلاغة، والطب، وهو مما يغري بدراسة سيرته لمعرفة ما أراقه من وهج في قلوب مريديه من جهة، ولتعقب تأثيرات تلك التلمذة وسريانها فيما نقلوه عنه من جهة ثانية.

– أن ابن رشد كان محور دراسات كثيرة منذ ظهور (ابن رشد والرشدية) لأرنست رينان وما تلاه، وجاء (ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية) تتويجا لحلقات متصلة، تستمد قيمتها من وحي صاحب السيرة الذي "فاق ابن مضاء القرطبي" على حد تعبير بنشريفة، الأمر الذي يغري الدارسين بتلقف هذه السيرة وعدها مصدرا علميا موثوقا، مدرجا ضمن مسرد مراجعهم البحثية.

ولعل الوثائق التي أوردها بنشريفة أفادت في هذا الباب، وأظهرت أن ثمة فريقا من معاصري ابن رشد حاقدا وآخر معجبا، فشهادات زجل بن قزمان وابن طملوس، وتقاريظ أخرى كانت تحمل في ذاتها تقديرا له ودفاعا عنه، وشهادات تحمل غير ذلك، "وهذا من شأنه أن يجعلنا نعيد النظر في التصورات الشائعة حول موقف أهل

١– ابن رشد الفيلسوف: السياق والامتداد، فؤاد بن أحمد، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، قسم العلوم والإنسانية والفلسفة، الرباط، المملكة المغربية، ص:٣.

٢– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص٢٥٥.

عصره منه"[1]. ولا شك في أن تناوله بهذه الوفرة أثرت الشخصية، وأظهرت أبعاد الصورة، بخلاف ما لو وقف الباحث على وجه واحد للحقيقة بالنظر إلى الهرم من زاوية واحدة.

الهوية Identity :

الهوية عتبة نصية، وجماعها اللغة والتاريخ والزمان والمكان والأيديولوجيا وما يرشح عن ذلك من ثقافة وفكر وفن وإبداع، وما يتلمسه القارئ من ملامح العصر وتماوجاته، ولكل عصر تيماته وهويته التي تميزه من غيره، وكما أن لكل فرد بصمته، فلكل مجتمع هويته.

ولعل المنجز الأدبي الذي اضطلع به بنشريفة وهتفت له جماهير القراء عليه – ضمن ما راق لها– تمثل في بحثه الوئيد عن الذات المغربية، وعكوفه على ترسيخ الأصالة وتأصيل الهوية، فكانت التراجم والسير الأدبية الوثائقية ببعديها الفكري والإنساني التي أحيا بها سير أعلام المغرب والأندلس ممن طال عليهم العهد فطوى ذكرهم، فجاء بنشريفة متأبطا مخطوطات ووثائق تعرف بهم، عارضا طرفا من سيرهم وأخبارهم، ونماذج من أعمالهم، كاشفا الغطاء عن المؤثرات التي ساعدتهم على الفرادة على اختلاف توجهاتهم العلمية، ومشاربهم الثقافية، ومنازعهم الفكرية، وتحدر بيئاتهم الاجتماعية، راسما بذلك صورة حياة لغابرين ما كان لنا علم بهم، أو لا نعلم عنهم إلا نزرا يسيرا.

وقد تجلى هذا الضرب من السير الغيرية الوثائقية في صنيع بنشريفة مع جلة أعلام التراث المغربي والأندلسي فربت على ثلاثين مصنفا، بلغ بها شأوا بعيدا، ومثالا فريدا، ولعل نظرة واحدة إلى عنواناتها تشي بما كابده من جهد، وما أنفقه من وقت في الجمع والتعقب في المظان نعد منها ولا نعددها:

[1] – ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٣٢٤.

(البسطي آخر شعراء الأندلس، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، ابن عبدالملك المراكشي، أبو يحيى الزجالي القرطبي، التعريف بالقاضي عياض وبنيه، ابن عبيد يس النفزي من أعلام التصوف بالأندلس في القرن السابع، بنو عشرة، ابن فركون من شعراء البلاط النصري، ابن رزين التجيبي، ابن بياع السبتي، مؤرخ أندلسي مجهول، الفقيه الكانوني ومؤلفاته، ابن عميرة قاضيا في الرباط وسلا، ابن عميرة في إفريقية الحفصية، القاضي عياض ضمن موسوعة "مذكرات التراث المغربي"، الكفيف الزرهوني وملعبته، ابن عبد ربه الحفيد، ابن الزبير وكتابه الزمان والمكان، بنو زهر، نظرات في تاريخ أسرة أندلسية، هشام المؤيد في طفولته، المنتوري، ابن خمير السبتي وآثاره، الحافظ الماكري وآثاره، البناهي لا النباهي، الكانمي، إبراهيم الساحلي، عبد الرحمن سقين، ابن عمر، ابن لبال الشريشي، ابن مغاور الشاطبي، ابن حريق البلنسي، تراجم مغربية من مصادر مشرقية، أديب الأندلس أبو بحر التجيبي، ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية).

ولعل السر في اهتمام بنشريفة بالسير الغيرية يعود إلى البحث عن الذات المغربية من حيث أصالة الهوية وقوة الانتماء؛ آملا في أن يبعث تراثا يحفظ فيه الأبناء موروث الآباء، ومنقبا عن ميراث أمة ذات وجود حضاري ضارب في أعماق التاريخ. وبتفحص جملة نتاج بنشريفة يلحظ أن اختياره كان واقعيا مشدودا إلى غاية شريفة، فلم يكن ساكنا في برج عاجي، أو حالما في عالم خيالي، أو هائما وراء فكر ميتافيزيقي، وإنما يحفر عن شخصيات مغربية ذات وجود حقيقي، لها علاقة وثيقة بمحيطها الاجتماعي وتململه السياسي، متفاعلة معه أخذا وإعطاء، تأثرا وتأثيرا.

عتبة بداية المقدمة:

أولى النقاد القدماء المقدمات والبدايات والصدور والمطالع عنايتهم فخصوها بحديث في مصنفاتهم، وقد عقد ابن رشيق في العمدة ما أسماه(باب في المقاطع والمطالع) ذكر فيه "أنا نجد في كلام جهابذة النقاد إذا وصفوا قصيدة قالوا: "حسنة المقاطع، جيدة المطالع، وأن جودة المطلع دال على ما بعده كالتصدير وما شاكله"،

ثم أعقبه بباب آخر أسماه (باب المبدأ والخروج والنهاية) ذكر فيه أن "حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح..وأن الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره، فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة"([1])، وجاء ابن أبي الإصبع فخص فواتح السور القرآنية بحديث مسهب ذكر فيه أن الفواتح اللفظية في السور من الإعجاز، وقد أحصاها فبلغت عنده خمسا وثمانين فاتحة في كتاب أسماه (الخواطر السوانح في أسرار الفواتح)([2]).

ليست المقدمة وحدها عتبة نصية بل مقدمتها كذلك عتبة من عتبات النص، وكلما كانت دالة المعنى، محكمة المبنى كان تأثيرها أعمق، فهي الدفقة الشعورية الأولى، والومضة التي لمعت في العقل، وبرقت في الفكر وحركت الوجدان وأخذت بمجامعه فاستثارت الدافعية وحب الفضول لاستقبال العمل، وقد ابتدر بنشريفة مقدمته بسرد عدد من الندوات العلمية التي تناولت ابن رشد في بقاع شتى من العالم، منوها إلى سني انعقادها، مبتدئا بابن رشد والرشدية لأرنست رينان في منتصف القرن الماضي، وأنه نظمت خلال الأعوام الأخيرة ندوات متعددة كندوة كلية الآداب بالرباط في إبريل ١٩٧٨، ومهرجان ابن رشد بالجزائر في نوفمبر١٩٧٨، والكتاب التذكاري عن ابن رشد نشرة المجلس الأعلى للثقافة في مصر ١٩٩٣، ونشرة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت حول ابن رشد سنة ١٩٩٥، ثم أوما إلى ملتقيات قبل ذلك حول ابن رشد في عواصم أوروبية كالملتقى الدولي الذي نظم بباريس سنة ١٩٧٦، وبن رشد بمرسيليا الذي تم بالتعاون بين بلدية مدينتها ومعهد العامل العربي بباريس وأعمال هذه الندوات والمهرجانات والملتقيات منشورة.

[1] – ابن رشيق(٣٩٠– ٤٦٣هـ)، العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، شرح وضبط: عفيف نايف حاطوم، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣، ص١٨٥.

[2] – الخواطر السوانح في أسرار الفواتح، ابن أبي الإصبع المصري(٥٨٥– ٦٤٥هـ) تحقيق: حفني محمد شرف، طبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦٠م. المعجم المفسر لعتبات النصوص، د. عزوز علي إسماعيل، ص٧١.

وأشار المؤلف إلى أن هناك تواليف قد نشرت عن ابن رشد بمناسبة الندوات الآنف ذكرها مما لم يسبق نشره وبعضها أعيد نشره؛ ومنها: ما طبع في أكثر من جهة ككتاب الكليات الذي طبع أول مرة بالتصوير في العرائش سنة ١٩٣٩ ثم طبع أخيرا في مصر وإسبانيا. وقد أعيد طبع فصل المقال والكشف عن مناهج الأدلة وأعلن عن نية إعادة طبع غيرهما في مشروع يشرف عليه د. محمد عابد الجابري.

كما أبان عن أن "ما كتب في ابن رشد من دراسات ومقالات على اختلاف اللغات فلا تستوفيها إلا الفهارس الموسعة ومنها فهارس خاصة بمؤلفاته فحسب، وأن دراسته هذه تجيء إسهاما متواضعا ضمن احتفال جهات جامعية، وأكاديمية في عدد من بلاد العالم بمرور ثمانية قرون على وفاة الفيلسوف القرطبي، وقد رأينا بهذه المناسبة أن نسهم إسهاما متواضعا بإعداد هذا المجموع الذي يضم بين دفتيه نصوصا متعددة ومواد مختلفة تنفع في كتابة سيرة مفصلة وموثقة لأبي الوليد التي ما تزال في حاجة إلى البحث والدراسة والكشف والإبانة".

جـ– الإشارة النصية Textual singn

يعرف د. عزوز الإشارة النصية في معجمه من خلال إسقاطها على الجنس الروائي الذي يتناوله بأنها تجعل "رابطا حقيقيا بين شخصيات العمل الروائي والفضاء المنتشر عبر ربوع الرواية"(١)، وأنها ثمرة علاقة الفضاء بالشخصيات موضحا أن "هناك سلطة لذلك الفضاء على الإشارة النصية التي تربط النص بفضائه وبين شخصياته، فعلاقة الشخصيات بفضائها من العلاقات المهمة في تحليل الرواية"(٢)، فإذا ما أردنا تنزيل التعريف على صنيع بنشريفة وجدنا أنه متحقق من خلال ارتباط النص بفضائه وشخصياته وتداخله مع أماكن متعددة، لاسيما وأنه متصل بالسرد الوصفي موضوع هذه السيرة "وبكونه هوية من هويات النص الأدبي

١– المعجم المفسر لعتبات النصوص، د. عزوز علي إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ٢٠١٩، ص ٣٦–٣٧.

٢– البحث عن المغزى تجارب في قراءة النص، د. محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠١٢، ص٦١. نقلا عن: المعجم المفسر لعتبات النصوص، د. عزوز علي إسماعيل، ص٣٦–٣٧.

المرتبط بالزمن السردي المروي، ذلك أن الفضاء له خصوصياته بالواقع الاجتماعي والتململ الثقافي، فلا يوجد إنسان على ظهر البسيطة إلا وله ارتباط بالمكان.

والإشارات النصية في النص السيري صنعة بنشريفة قد رسم صورة للمكان في الأندلس وحركة ابن رشد فيه لا سيما قرطبة ومتجاوراتها، فتظهر في السيرة تفاعلات المكان مع الشخصية وتفاعل الشخصية مع المكان ثقافيا وبيئيا على نحو ما سنرى من شهادات واعترافات ومكاتبات، ففي شهادة عبدالملك وابن رشد يذكر أبو الحسن بن قطرال أنه قال: أعظم ما طرأ علي في النكبة أني دخلت أنا وولدي عبدالله مسجدا بقرطبة، وقد حانت صلاة العصر، فثار لنا بعض سفلة العامة فأخرجونا منه"(١).

وفي شهادة ابن الزبير في ابن رشد سنرى أنها تفرق بين رأي الناس فيه قبل المحنة وقد قاطعه تلاميذه ومعاصروه وبلديوه، ورأيهم فيه بعد المحنة وقد حافظوا على علاقتهم به وتأولوا مرتكبه، ويعقب بنشريفة بقوله: ولسنا ندري من أي القسمين كان ابن الزبير فهو لم يفصح عن ذلك(٢). ومن الإشارات النصية كذلك شهادة صفوان بن إدريس التي ينتقد فيها خصوم ابن رشد ويرد على أهل إشبيلية الذين انتقد بعضهم على أبي الوليد بعض أحكامه، وقصيدته التي وجهها من الجزيرة الخضراء يمدح فيها أبا الوليد ويتأسف على عدم تمكنه من السلام عليه قبل سفره، فهذه الإشارات النصية تتعاطى مع النص بصورة قوية من حيث المكان ويستحضر فيها المتلقي الحدث وزمكانه وشخوصه، وهو ما يسميه د. عزوز "عبقرية المكان وارتباط الذات بما أحبته، فيصبح المكان هو الملهم"(٣). ولا فرق في أن يكون المكان جاذبا للشخصية بما أسعد؛ أو طاردا لها بما أتعب، فالعلاقة تبادلية، إيجابية وسلبية "والتأثير القائم بينهما هو من "النصوص الموازية أو عتبات النصوص"(٤).

١- ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، محمد بنشريفة. ص٣٥.

٢- السابق، ص٢١.

٣- المعجم المفسر لعتبات النصوص، د. عزوز علي إسماعيل، ص٣٧.

٤- السابق، الصفحة نفسها.

د– الألم: **The pain**:

الألم عتبة من العتبات النصية، من حيث إنه "باعث على الكتابة؛ وأننا نتألم ونتأثر فنكتب، فالتأثر بسبب الألم، وعليه؛ يصبح داعيا إلى الكتابة"(١)، ولعل المحنة التي تعرض لها ابن رشد قد حفزت بنشريفة على تقديم تفسير تفصيلي غني بالمعطيات التي تظهر حقيقتها وتحدد حجمها وتكشف خباياها، والألم الذي مر به ابن رشد كذلك دفع بنشريفة –وقد تعاطف معه– إلى جمع شهادات توافر عليها لبعض معاصري ابن رشد، وهي شهادات تفتح السبيل لإعادة النظر في التصورات الشائعة حول موقف أهل عصره منه، وما قيل عن إحراق كتب ابن رشد وغير ذلك.

ثم إن وفرة الوثائق والمعلومات عن ابن رشد وتوافر بنشريفة عليها كانت ميزة للأول وحافزا للثاني الذي راح ينقب عن مزيد منها؛ تثبيتا لمعطيات، وتقوية لآراء، ودحضا لحجج، وتفنيدا لمزاعم، وإلقاء طاقة من الضوء لتبديد أحكام مسبقة علقت بالأذهان زمنا، كونها بنيت على مقدمات خاطئة، وحملت تصورات فاسدة، ومعلومات مبتورة. ونشير في هذا السياق إلى الصورة التي نراها لابن رشد عند دومينيك أورفوا(٢) في "**ابن رشد طموحات مثقف مسلم**"(٣)، أو تلك التي رسمها الجابري في "**ابن رشد سيرة وفكر**"(٤)، وكلتاهما تصوران عصره بأنه يسكنه "وحوش"، وقطعان من "ناكري الجميل". لعل هذه الآلام كانت حافزا لبنشريفة لصنع سيرة توثيقية وثائقية لصاحبه، "وإذا كان الألم داعيا إلى الكتابة فهو بالأحرى داعيا إلى القراءة"(٥)؛ فهي عتبة أخرى من عتبات النص السيري.

١– المعجم المفسر لعتبات النصوص، د. عزوز علي إسماعيل، ص٣٧.

٢– مستعرب فرنسي معاصر. باحث متخصص في الإسلام وأستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة تولوز (فرنسا) .

٥– ابن رشد طموحات مثقف مسلم، دومينيك أورفوا، ترجمة: محمد البحري، المنظمة العربية للترجمة، نشر :مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١١م،ص:٣٤.

٤– ابن رشد سيرة وفكر، دراسة ونصوص، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٨م،ص:١٥.

٥– المعجم المفسر لعتبات النصوص، د. عزوز علي إسماعيل، ص٤٢.

البيبليوجرافيا Biblio graphie

هي رصد وتحليل ما يتعلق بالكتاب أو المخطوط من الداخل والخارج تاريخيا وفكريا، وقد تحول معناها من كتابة الكتب إلى الكتابة عن الكتب"([1])، فهي"علم الكتاب بمعناه الواسع بحيث إن هذا الكتاب هو ماض وحاضر وكيان مادي وفكري ورسالة موجهة من مرسل هو المؤلف ومستقبل هو القارئ"([2]).

ثمة تقسيمات أشار إليها الدكتور شعبان عبد العزيز نقلها د. عزوز في معجمه تشير إلى أن هناك ببليوجرافيا نصية، وببليوجرافيا تاريخية تهتم بتاريخ الكتاب، وببليوجرافيا تحليلية تعنى ببناء الكتاب نفسه من الداخل وكيفية تطور بنائه، وهذا الفرع له أهميته الخاصة، وقد عده البعض أساس البيبليوجرافيا"، وإذا كان السير جريج قد قصر البيبليوجرافيا على أنها علم انتقال الوثائق الفكرية المادية فحسب، وأن "الكتب هي الوعاء المادي الذي عن طريقه ينتقل الكيان الفكري"([3]) فإن الدكتور شعبان قد نقده حين خلص إلى محدودية العائد من وراء دراسة الكتاب ماديا، في مقابل وفرة المكاسب وكثرة العوائد التي "تتأتى من دراسة الكيان المادي للكتاب في علاقته بالنص"، واهتمام البيبليوجرافي بالمخطوطات ليس في اللحاء الخارجي بل لما يكتنزه من نصوص، وما اهتمامه بالكتب المطبوعة ولوائحها التعريفية من العنوان واسم المؤلف والطبعة ودار النشر وغيرها من العتبات إلا ليتخذ منها عدة ويحمل منها ما يعينه على فهم أوسع للنص المتضمن فيها.

وإذا كانت الكتب نصوصا فإن البيبليوجرافيا هي عتبات تعريفية بتلك النصوص، بحكم أنها تضي الطريق لمعرفة المؤلف والكتاب والطبعة ودار النشر، وعلى ذلك فإن الدراسة تتناول كتاب "ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية" من خلال البيبليوجرافيا التحليلية، وهو ما صنعه المؤلف في كتابه حين قسمه إلى ستة عشر

[1]- المعجم المفسر لعتبات النصوص، د. عزوز علي إسماعيل، ص٥٩.

[2]- البيبليوجرافيا أو علم الكتاب، د.شعبان عبد العزيز، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، المقدمة. عن: المعجم المفسر لعتبات النصوص، د. عزوز علي إسماعيل، ص٥٩.

[3]- المرجع السابق، د. شعبان عبد العزيز، ص٢٤٦، عن: المعجم المفسر لعتبات النصوص، ص٦٠.

قسما، جعلها في مجموعات وفقا للنصوص التي جمعها، واختار لكل مجموعة عنوانا مناسبا، ورتب مواد كل واحدة حسب أوليتها أو أهميتها(١). كما سيأتي تباعا:

البنية الكبرى:

الفكرة العامة للنص هي البنية الكبرى للنص، ومتى بلغت القارئ فقد أحاط بالنص وفهمه واستوعبه، ولن يتأتى له ذلك إلا إذا تتبع النص في جزئياته الصغرى، فما البنية الكبرى إلا من بنيات صغرى تآزرت بعضها مع بعض فكونتها، فإذا دلفنا إلى النص من خلال بوابته الرحيبة وهي البنية الكبرى فلابد من تفكيك النص لمعرفة جزئياته ووحداته، إذ "يعتمد تفكيك النص إلى الوحدات المكونة له على الإدراك السليم لبنيته العليا؛ مما يعد شرطا ضروريا لتحليل علاقته وضبط خواصه"(٢)، والعكس يكون حين نركب البنيات الصغرى ونؤلف بين جزئياتها ومتتالياتها النصية الصغرى فإن ذلك يقودنا غلى فهم البنية الكبرى(٣).فما البنية الكبرى في "ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية"؟

ثمة دراسات كتبت عن أبي الوليد لكنها تستند إلى روايات مكذوبة أو مختلقة عليه أو مبتورة عن سياقها أو مفتقرة إلى التوثيق والتحقيق والتعليق والتصويب وتثبيت المعطيات، وأن بنشريفة قد بذل جهدا في تتبع المواد والنصوص فأحصاها وجمعها من مظانها وصنفها وأفاد منها واختار لكل مجموعة عنوانا مناسبا ثم طفق يرتب موادها حسب أوليتها وأهميتها، وكاشفا الغطاء عن أصحابها وتوجهاتهم. وقد مضى في سبيل ذلك بتقسيم كتابه إلى تعريفات وتحليلات وشهادات وإفادات وتأثيرات ومثالات وملحقات، ومذيلا له بفهارس ومصادر ومراجع. ومن المؤكد أن هذه البنية الكبرى مفتاح للولوج إلى عالم النص ودراسته باعتبار أنه عتبة من عتبات النص.

١– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٦.

٢– صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص٣٠٣.

٣– عزوز علي إسماعيل، المعجم المفسر لعتبات النصوص، ص٢٩٠.

البنية الصغرى:

هي تلك التي تتكون مع مجموعة من بنيات متساوية لها، يدخل من خلالها المتلقي لمعرفة مقصد الكاتب، وتتآزر البنيات الصغرى مع بعضها البعض لتكون البنية الكبرى للعمل، فالبنية الكبرى مجموعة بنيات صغرى(١)، ومن المفيد أن تومئ الدراسة إلى بعض هذه الأقسام كنماذج لمنهجية النص السيري غير الموثق الذي اتبعه بنشريفة في بناء السيرة، وما ينطبق عليها ينطبق على بقية الأقسام باعتبار أنها بنيات صغرى تؤسس للبنية الكبرى، ومن تلك البنيات الصغرى (الأقسام):

أولا: تعريفات:

ابن الأبار وابن رشد–ابن سعيد وابن رشد–ابن الزبير وابن رشد–ابن عبدالملك وابن رشد

في هذا القسم عرض بنشريفة وثائق توثق حياة ابن رشد وتعرف به وبكتبه وسيرته واهتماماته وتدريسه، ويذكر روايات عن أسباب محنته، كما أشار فيه إلى أنه سيضع القارئ في بؤرة المصادر التي كتبت عن ابن رشد، واعتمد المؤلف عليها في كتابه؛ ليعرفه بها وبأصحابها واتجاهاتهم، من هم؟ وماذا كتبوا؟ ولماذا؟ وأين؟ ومتى كتبوا؟ وكيف كتبوا؟ وما مصادرهم؟ فيكشف لنا عمن نأخذ ونتلقى، ولاشك في أنه منهج توثيقي فريد. كما أشار إلى أن القارئ سيجد الترجمة كاملة كما في "الذيل والتكملة"، مع إشارات نقدية إلى ما كان كاملا أو ناقصا من الترجمات الأخرى.

ابن الأبار وابن رشد:

يستفتح بنشريفة حديثه في "التعريفات" بابن الأبار الذي ترجم لابن رشد في "التكملة" ترجمة مجدها بنشريفة، ووصفها بأنها أول ترجمة حقيقية تكتب عن ابن رشد في كتب التراجم الموجودة(٢)؛ لأن ابن الأبار أراد أن "يعطي بها مثالا لغيره في

١– عزوز علي إسماعيل، المعجم المفسر لعتبات النصوص، ص٧٢.

٢– نفسه، ص: ١٠

تقديم صورة تليق بالقاضي أبي الوليد"[١]، فأصبحت "تمتاز بخلوها من أية شائبة شك فيه، بل إنها كلها تمجيد لأبي الوليد وتعداد لمحاسنه"[٢]؛ لذلك اعتمد عليها عدد من مؤلفي كتب الطبقات بدءا من ابن فرحون في "الديباج المذهب" إلى الحجوي في "الفكر السامي"[٣]، وبما أنهما تأثرا بابن الأبار ونقلا عنه؛ فقد أتى بنشريفة بما نقلاه عنه ليظهره مع بعض تعليقاته. كما ساق بنشريفة بعض أقوال لابن الأبار وصف فيها ابن رشد بأنه: "لم ينشأ بالأندلس مثله كمالا وفضلا"[٤]. وتتبع مصادر ابن الأبار التي اعتمد عليها في استقاء معلوماته، وأنه أخذها عن "بعض تلاميذ ابن رشد كأبي الربيع بن سالم، وابن طملوس وغيرهما".

ولا يدع بنشريفة قارئه دون توسيع رقعة الفائدة بنقد أو تعليق، فنراه يأخذ على ترجمة ابن الأبار –مثلا– أنها "خلت من سرد مؤلفات ابن رشد الفلسفية"[٥]. ثم يوجهه قارئه إلى ترجمات أخرى؛ للموازنة وإبراز الفروق الدقيقة بينها، فبضدها تتمايز الأشياء. بيد أنه لايزال بترجمة ابن الأبار معجبا، لذا جعلها أصلا يقيس عليها ترجمات سابقة ولاحقة، فعقد موازنة بين ترجمة ابن الأبار وترجمة سابقه أحمد بن يحيى الضبي فيما كتبه عنه في "بغية الملتمس"، ونقد ترجمته المختصرة التي كان نصها: "فقيه حافظ مشهور مشارك في علوم جمة، وله تواليف تدل على معرفته، توفي بحضرة مراكش في سنة٥٩٥هـ"[٦]، فوصفها بأنها ترجمة قاصرة. ثم وازن بين ترجمة ابن الأبار وترجمات لاحقة كترجمة ابن الزبير وابن عبدالملك، ونعى على أصحابها بأنهم –من ناحية أولى– لم يحذوا حذو ابن الأبار. كما نقد منهجهم الذي تأثروا فيه ببعض شيوخهم"، وأنهم –من ناحية ثانية– "جلبوا بعض

[١]– عزوز علي إسماعيل، المعجم المفسر لعتبات النصوص، ص: ١٠

[٢]– نفسه، ص: ١٠.

[٣]– نفسه، ص: ١١ والديباج المذهب، ص:٢٨٤ والفكر السامي ٢: ٢٢٨–٢٢٩

[٤]– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:١٠.

[٥]– السابق، الصفحة نفسها.

[٦] – نفسه. نقلا عن: بغية الملتمس، ص:٤٤.

الأقاويل التي تقولت عليه"([1])، وكان أولى لهم أن ينفوا عنه خبث الأخبار المكذوبة عليه لا أن يجلبوا "تخرصا وأحاديث ملفقة".

ابن سعيد وابن رشد:

عرف بنشريفة بابن سعيد المغربي بأنه أبو الحسن علي بن موسى، وقاسه بابن الأبار –معاصره– من حيث العناية بتدوين تراث الأندلس والتعريف بأعلامها، وأنه ترجم لابن رشد في المغرب، وأن ترجمته تأتي بعد ترجمة ابن الأبار زمنيا، ورغم أنها ترجمة قصيرة إلا أنها ذات قيمة أدبية لاشتمالها على إيراد قطعة من شعر أبي الوليد، واستنادها إلى شهادة لأحد الأعلام. واستنبط بنشريفة من ترجمة ابن سعيد أنها تلتقي وترجمة ابن الأبار من حيث الإكبار والإجلال لابن رشد، وزاد فنقل نص ابن سعيد من تعريفه بابن رشد، وأن والده أدركه وقرأ عليه، ونقل نقل ابن سعيد عن الشقندي بأنه: "فقيه الأندلس وفيلسوفها الذي لا يحتاج في نباهته إلى تنبيه". وأنشد له من شعره مقطوعته الرائعة:

ما العشق شأني ولكن لست أنكره كم حل عقدة سلواني تذكره

ولا يقنع بنشريفة بما ساقه من خبر ترجمة ابن سعيد، بل يتقصى ويتحرى إن كان ثمة ذكر منه لأبي الوليد في موطن آخر، حتى يعثر على ضالته، فيقول: وقد ذكر ابن سعيد أبا الوليد مرة أخرى في تذييله على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس فقال: "وأما الفلسفة فإمامها في عصرنا أبو الوليد ابن رشد القرطبي، وله فيها تصانيف". وفي موطن آخر قال: "كتاب النهاية لأبي الوليد ابن رشد كتاب جليل معظم معتمد عليه عند المالكية".

ابن الزبير وابن رشد:

عرفه بنشريفة بأنه أبو جعفر أحمد بن الزبير المولود في ٦٢٧هـ، بينه وبين ابن رشد ثلث قرن تقريبا، وأنه ترجم لأبي الوليد في القسم الأول من كتابه "صلة

[1]– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:١١.

الصلة" ضمن ما ترجم لجمع من علماء الأندلس في القرنين السادس والسابع الهجريين، وقد استقى معلومات أبي الوليد عن بعض تلاميذه ومن كتبه، فهو يسوق رأي غيره دون أن يقطع برأيه، ورغم أن الكتاب مفقود إلا أن ابن عبدالملك المراكشي وابن الحسن النباهي نقلا جزءا مهما من الترجمة أثبته المؤلف.

ولفت بنشريفة إلى أمر مهم جمع بين ابن الزبير وابن عبدالملك وغيرهما أنهم كانوا من الملمين بالفلسفة المطلعين على مادتها، ولئن كان ابن عبدالملك سرد كتب ابن رشد فإن ابن الزبير قد التزم التقييد المتعلق بفلاسفة اليونان وأخبارهم معتمدا على ما ذكره القاضي صاعد في كتابه "طبقات الأمم". وقد لاحظ بنشريفة أثر هذا في بعض مصنفات ابن الزبير ومنها تفسيره المسمى "ملاك التأويل" الذي عرض فيه قول بعض الفلاسفة باستبعاد الحياة الأخروية وإنكار حشر الأجساد(١).

وقد فطن بنشريفة إلى ما ذكره ابن الزبير وما ورد عند ابن رشد في (فصل المقال) وتكفير الغزالي للفارابي وابن سينا؛ لقولهما بقدم العالم، وبأنه –تعالى عز شأنه وتعالى عن ذلك– لا يعلم الجزئيات، وتأويله ما جاء في حشر الأجساد وأحوال المعاد(٢).

لكن المؤلف يبحث دائما في اتجاهات الكتاب والمؤرخين، فيلقي بين أيدينا عبارة: "ولكننا نعلم أنه كان على صلة ببعض المنابذين لابن رشد كالأشعريين القرطبيين"، إجابة عن سؤال يلح عليه في ضميره: من هو؟ والإجابة كفيلة بالتعرف إلى هوية كاتب الترجمة اتجاها سياسيا، ومزاجا ثقافيا، ومنزعا فلسفيا، علها تعطي ملمحا عن تماوجات الحياة الاجتماعية للعصر آنذاك؛ ولذلك فإنه يستنبط من شهادة ابن الزبير في ابن رشد أنها تفرق بين رأي الناس فيه قبل المحنة ورأيهم فيه بعدها، كما أنها تصنف الناس بعد المحنة إلى قسمين: قسم قاطعوه –ومنهم بعض تلاميذه ومعاصريه وبلدييه– وقسم حافظوا على علاقتهم به وتأولوا مرتكبه فيما ذهب إليه،

١– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٢١.

٢– نفسه، ص:٢١، نقلا عن فصل المقال،ص:١١.

لكن بنشريفة لم يستطع القطع بنسبة ابن الزبير إلى أي القسمين؛ لأنه لم يفصح عن ذلك.

ابن عبدالملك وابن رشد:

تتبع بنشريفة ترجمة ابن عبدالملك وبين أثرها في "رينان" الذي اعتمد عليها في الفصل الأول من كتابه عن ابن رشد، عن نسخة ناقصة فيها خرم؛ بيد أنها كانت وحيدته في وقته، وأن "رينان" كان قد عنون هذا الملحق بـ "قطعة من سيرة ابن رشد الأنصاري"، ولم ترق لبنشريفة نسبة "الأنصاري"؛ لأن صاحب "الذيل والتكملة" يعرف بـ "ابن عبدالملك" لا بالأنصاري، ثم إن هذه النسبة قد تبعه في استعمالها آخرون آخرهم "دومينيك أورفوا" في كتابه عن ابن رشد. وهذا تتبع دقيق من بنشريفة لمسيرة العمل، وإدراك لسريان الخطأ والقصور من مترجم إلى آخر.

أما ترجمة ابن عبدالملك فهي ثالث ترجمة من حيث الترتيب التاريخي، أي بعد ترجمة ابن الأبار في "التكملة"، وترجمة ابن الزبير في "صلة الصلة". وتشتمل على أكبر قدر من الأخبار حول نسب ابن رشد وشيوخه وتلاميذه وعلومه وتآليفه ومحنته، جمعها من مصادر عدة، بدا فيها "موضوعيا" حين أتى بأقوال أعدائه وأصدقائه، ولم يكن كابن الأبار الذي تغافل عن خصوم أبي الوليد، وبدا في ترجمته متعاطفا معه. وهي قيمة تنضاف إلى ترجمة ابن عبد الملك، التي "لولاها ولولا إشارات له في مواضع أخرى من الكتاب نفسه لكانت معرفتنا بأبي الوليد ناقصة"([1]).

تتبع بنشريفة منهج ابن عبد الملك ووصفه بأنه "ما حاد عنه في سائر تراجمه؛ لكن هناك من انتقد منهجه كأبي القاسم التجيبي السبتي –أحد رواة الذيل والتكملة– ومنهم من اتبع سبيلا غير سبيله كـ"الغبريني" في عنوان الدراية الذي أمسك عن الخوض في محنة ابن رشد وأصحابه؛ لأنه مازال "ينقد على من يذكر فضل أهل العلم ثم يغمز في شأنهم، ويشير إلى القادح فيهم، فلا أريد أن أذكر إلا الخير"([2]).

[1]– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٢٤.

[2]– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٢٤.

ويضيف بنشريفة –إلى ما سبق من محاسن ترجمة ابن عبدالملك– المسرد التام لتآليف أبي الوليد، ويستدل به على أن مصنفاته كانت منتشرة حتى بعد مرور قرن على تأليفها؛ لكنه لم يستطع تحديد مصادر ابن عبدالملك في المسرد، وإن كان على يقين بسعة اطلاعه وولوعه بالفهارس والبرامج التي وقف عليها، وما أكثرها!

وحين يراجع بنشريفة المسرد من خلال "برنامج الفقيه القاضي الإمام الأوحد أبي الوليد ابن رشد" يبدو تحليله عميقا وهادئا، وتساؤلاته في موضعها، فلا يسلم بالقول دون تقليبه على غير وجه. وهذه فقرة موجزة تعكس طريقة تناوله، يقول فيها: "لكنه ليس برنامجا بالمعنى المعروف، فهو عبارة عن قائمة تشتمل على أسماء الكتب التي ألفها ابن رشد، لعلها من إعداد حفيد له يدعى أبا العباس يحيى ابن رشد، ولسنا نعرف هل وقف ابن عبد الملك على هذا البرنامج الموجز أم لا، ولكننا نلاحظ توافقا بينه والمسرد الذي ذكره، وإن كان بينهما اختلاف في الترتيب(١).

ورغم تلك المحاسن فإن ابن عبدالملك لم يسلم من نظرة نقدية يراه فيها بنشريفة متأثرا أحيانا برأي شيخه أبي الحسن الرعيني وهو يقول في معرض كلامه عن الغافقي تلميذ ابن رشد: "وحدثني –رحمه الله– وقد جرى ذكر هذا المتفلسف وما له من الطوام في محادة الشريعة"(٢). وفي موطن آخر وصف طريقة ابن رشد بالطريقة المشنوءة، ففي ترجمة أبي عبدالله الأصولي: "مع وسيلته في الارتسام بتلك الطريقة المشنوءة طريقة أبي الوليد ابن رشد الصغير"(٣).

وقد عرض بنشريفة مادة ترجمة ابن عبدالملك مرتبة ترتيبا منطقيا، من حيث البدء باسمه ونسبه ومولده وشيوخه الذين روى عنهم، وتلاميذه الذين رووا عنه، والعلوم التي برع فيها كالفلسفة والطب والأدب واللغة، مع كثرة تمثله لشعر حبيب والمتنبي، وسرده الحكايات والأخبار، وبراعته في الفقه، وأنه لما تولى القضاء صنف

١– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٢٦.

٢– نفسه، الصفحة نفسها. والذيل والتكملة٦:٢٩

٣– نفسه، والذيل والتكملة ٨:٢٧١

كتابه "بداية المجتهد وكفاية المقتصد"[١]، وذكر تصانيفه وتآليفه التي قدرها ابن الأبار بعشرة آلاف ورقة، وابن فرحون بأنها تنيف على ستين تأليفا[٢]. ثم ذكر أخلاقه، وفصاحته، وأسباب نكبته، وساق لذلك نصوصا –تروي أحداث المحنة– لأبي الحسن بن قطرال، وأبي عبدالله بن عياش، وابن الأبار، وأبي الحسن الرعيني، وابن الزبير، وسبع مقطوعات شعرية لأبي الحسين بن جبير[٣].

ثانيا: تحليلات:

هذا القسم يتمحور حول قضيتين: قبل المحنة، وحول المحنة. وثمة سؤالان مطروحان: ما علاقة ابن رشد بالمهدي ابن تومرت؟ وكيف دخل ابن رشد في الأمر العزيز؟ ويجيب عنهما بنشريفة من خلال تناوله الفترتين بذهن صاف، وفكر هادئ، وتحليل عميق.

فقد شغلت علاقة ابن رشد بابن تومرت وعقيدته والدولة الموحدية الدارسين حتى تضاربت في ذلك أقوالهم، وقد ولج بنشريفة إلى الموضوع من خلال قراءة العصر ورصد تجاذباته وتململاته، فصور حركة الناس بين دولة غرب نجمها، وأخرى سطعت شمسها، في محاولة منه لتقصي أثر حركة ابن رشد وسط الغبار الكثيف الذي يعلو الزحام، فما كادت الدعوة الموحدية لتبلغ الأندلس حتى سارع إلى الانخراط فيها وجهاء وعلماء لهم بواعث ودوافع مختلفة، إما تأييدا لها، أو تقربا ومماألأة لأصحابها، ولربما رغبا في نيل مغنم، أو رهبا من مغرم يفقدون به ما بأيديهم، أو يعرضون أنفسهم لسطوة ناجمة عن تأخر نصرتهم[٤]. وقد ذكر بنشريفة أسماء لامعة، كابن مضاء الذي لحق بـ"تينمل" وأخذ أهلها عنه، وكان قد أقرأ أولاد عبدالمؤمن.

---

[١]– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٢٨.

[٢]– نفسه، ص:٢٨.

[٣]– نفسه، صفحات: ٣٥–٤٠.

[٤]– نفسه، ص:٤٦.

كما سارع ابن الإشبيلي وأهدى لعبدالمؤمن مصنفه "المعراج"، فأكرمه ورقاه، وأسند إليه شرح كلام المهدي وعلمه وإقرائه. ووفد أبو محمد عبدالله المالقي وكان"فقيها نظارا خطيبا مفوها" مكين الحظوة في زمن عبدالمؤمن، وكذا أبوبكر محمد بن ميمون العبدري الذي كان يحضر مجلس عبدالمؤمن ويعلم أولاده(١). وكان من بين هؤلاء الذين دخلوا في "الأمر العزيز" من تأمروا ببلدانهم بعد زوال دولة المرابطين، كأبي عبدالرحمن بن طاهر المرسي الذي استقر بمراكش مكرما بعد وفوده على عبدالمؤمن، وقد خاطب عبدالمؤمن برسالة برهن له فيها على صدق مهدوية ابن تومرت بحجج عقلية ونقلية.

وتكمن أهمية هذه الرسالة في أنه أشار فيها إلى رسالة تعرف برسالة الإمامة لابن تومرت وما تتضمنه من فوائد جمة، وفي ذلك دلالة على شيوع كتابات المهدي ووصولها إلى شرق الأندلس قبل دخول الموحدين بسنين عديدة(٢). ومنهم "أخيل بن إدريس الرندي" وكان قد أمسك بلده (رندة) ثم ولاه عبدالمؤمن قضاء قرطبة، وناصر الموحدين ومهد لهم غرب الأندلس(٣). كما عدد بنشريفة الكتاب الذين تسابقوا في خدمة الدولة الجديدة بعد أن كانوا حرسا قديما للعهد السابق كابن الطفيل الطبيب الكاتب، وأبي عبدالله بن عميرة، وأبي الحسن عبدالملك بن عياش، وأبي الحسن علي بن هردوس، ولما عين عبد المؤمن أولاده ولاة على الأقاليم بعث بهم كتابا.

هكذا مهد بنشريفة للحديث عن ابن رشد، المحسوب على المرابطين، فقد خدم جده ووالده دولتهم، لذا كان أحوج من غيره إلى الانخراط في النظام الجديد، فما إن وصل الموحدون إلى قرطبة سنة ٥٤٣هـ حتى فكر وهو في الثالثة والعشرين من عمره في الدخول في الأمر العزيز، ولو وصلت إلينا رسائله التي كتبها في هذا الموضوع لعرفنا ظروف ذلك وكيفيته(٤).

١– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٤٤.

٢– نفسه، ص:٤٥.

٣– نفسه، ص:٤٥.

٤– نفسه، ص:٤٦.

ويتوقع المؤلف أن ابن رشد ربما كان ضمن وفد قرطبة الذي وصل مع إشبيلية إلى مدينة سلا في أول سنة ٥٤٦هـ لمبايعة عبدالمؤمن، لكن يظن أن صغر سنه هو السبب في عدم ذكر اسمه ضمن الوفد، كما يبدو من النصوص أنه أقام في مراكش إلى سنة ٥٨٤هـ وما بعدها، ولعله قرأ خلال هذه الفترة أعمال المهدي ابن تومرت التي يشتمل عليه الكتاب المعروف بـ "أعز ما يطلب"، وأنه قام بشرح العقيدة الذي سمي في الذيل والتكملة بـ "شرح الحمرانية"، وسمي في المراقبة العليا: "شرح الحمدانية في الأصول"([1])، أي أصول الكلام، ولعل التسمية الأولى هي الصحيحة؛ لأن العقيدة تبدأ بما يلي: "وعن حمران مولى عثمان بن عفان."([2])، فالحمرانية منسوبة إلى حمران، ويبدو أن هذا الشرح هو مما ألفه ابن رشد في شبابه، وقد يكون وضعه بعد "تعلمه ما فصل من علم المهدي"، ولسنا ندري هل ألفه من تلقاء نفسه أم أنه كلف به، ومهما يكن الأمر فإن ثمة أعلاما من هذه الحقبة قاموا بشرح بعض الرسائل التي يشتمل عليها مجموع أعز ما يطلب، ومن هؤلاء أبوبكر محمد بن ميمون العبدري الذي شرح "رسالة العلم"([3])، وأبو العباس أحمد بن جرج أحد الثلاثة الذين امتحنوا بسبب اشتغالهم بالفلسفة فقد شرح مختصر صحيح مسلم الذي أملاه المهدي بن تومرت وسماه "الإعلام، بفوائد مسلم للمهدي الإمام"، وله كتاب آخر سماه: "حسن العبارة، في فضل الخلافة والإمارة"، ولعله شرح لرسالة الإمامة التي يشتمل عليها مجموع: أعز ما يطلب". هكذا مضى بنشريفة يحلل ويفسر ويرجح ليوثق الأحداث ويجليها أمام القارئ.

ويتحف بنشريفة قارئه بوثيقة قيمة لابن رشد، هي مقطع من شرح الحمرانية، قال فيها: "وأما مرتبة جميع المؤمنين في المتشابه فهم الذين لا يشعرون بما ورد في

[1]- الذيل والتكملة ٦:٢٣.

[2]- أعز ما يطلب، ص:٢٢٩-٢٣٩.

[3]- قال المؤلف في الحاشية:"يوجد في خزانة ابن يوسف، حصل به باحث مغربي على درجة الدكتوراه في تونس". ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٤٦.

الشرع منه؛ لقوة إيمانهم، ولعلمهم بأنه من عند ربهم، وهم الذين واظبوا على الوظائف الشرعية، والتزموا تعظيم الحقوق الإسلامية، وسلكوا على الطريقة الحنفية السمحة، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: "ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى". وفي الحديث؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"أكثر أهل الجنة البله".الحديث، وليس بلههم في الخير، إنما بلههم في الشر لا يعرفونه، وفي ذلك أنشدوا:

ولقد رأيت البله قد بلغوا المدى وتجاوزوه وازدروا بأولي النهى(١)

ولما علم الإمام المهدي أن في الطريقة الجمهورية الاحتياط والسلامة من كل عيب، والنجاة من كل تشويش وفتنة، خاف من الترديدات النفسية، والخواطر التشبيهية، وعلم أن علم المتشابه من علم الخواص أهل الاختصاص، وعلم أنه لا ينبغي أن يتعرض لتأويل المتشابه إلا راسخ في العلم، سكت عن مرتبة الراسخين، وجاء بكلام مجمل بديع يشير به إلى الانكفاف عن تأويل المتشابه وهو طريق السلامة، وكان ذلك منه –رضي الله عنه– خوفا على جمهور المؤمنين أن يسبق إلى أحدهم الخطأ في معتقده بتشبيه أو تعطيل، أو بما لا يليق بالباري سبحانه، أو بإبطال الآيات والأخبار رأسا. فقال: وما ورد من المتشابهات التي توهم التشبيه والتكييف إلى آخر كلامه، وإلى ما ذهب الإمام المهدي من الانكفاف عن تأويل المتشابه، ذهب جمهور السلف الصالح من هذه الأمة، وهو المجدد لما درس من الكتاب"(٢).

هذه الفقرة التي ساقها بنشريفة يعتقد أنها من شرح الحمرانية الذي كان مقدمة لما تلاه من الكتب مثل كتاب "**فصل المقال**" وكتاب"**الكشف عن مناهج الأدلة**"، ولعل ما يمكن تناوله –كما يرى بنشريفة– في هذا الشأن مسألتان: **الأولى:** تاريخ

١– البيت من قصيدة لأبي إسحاق الإلبيري، ديوانه، تحقيق: محمد رضوان الداية، ص٩١.

٢ ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص٤٨.

التأليف؛ فاحتمالية أن يكون شرح الحمرانية مقدمة للكتابين قائمة، وهو ما يشير إلى أن تاريخ تأليفه ليس ببعيد زمنيا من فترة تأليف الفصل والكشف.

والثانية: أن الفقرة الآنفة الذكر من الشرح تتوافق بدرجة كبيرة مع نسخة **الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة** المحفوظة بخزانة كوبرلو. ويفهم من ذلك أن النصوص الثلاثة **(شرح الحمرانية، والدخول في الأمر العزيز، والكشف)** تتجلى فائدتها في معرفة علاقة ابن رشد بعقيدة الموحدين وبابن تومرت، وهذا من شأنه أن يفسر كثيرا من التأويلات التي هام في وديانها الدارسون؛ ليردهم إلى طريق أقرب إلى الحقيقة.

قبل المحنة:

استهل بنشريفة حديثه في هذا القسم بنتيجة مفادها أن "الذين ترجموا لابن رشد من الأقدمين كابن الأبار وابن عبدالملك وغيرهما لا يذكرون من تواريخ حياته الطويلة العريضة إلا تاريخين اثنين؛ هما: تاريخ ولادته سنة٥٢٠هـ، وتاريخ وفاته سنة٥٩٥هـ. أما بين هذين التاريخين فلا يذكرون منه شيئا على وجه التفصيل، وإنما يشيرون إلى أن حياته كانت حافلة بالتعلم والتعليم والتأليف والتطبيب"(١).

ورصد بنشريفة ما اقتصرت عليه الترجمات فذكر شيوخ ابن رشد، وعلومه، وتلامذته، وقد مضت السنون السبعون من حياته إلى مماته بين تعلم وتعليم وتأليف كما يقول ابن الأبار: "وعني بالعلم منذ صغره إلى كبره حتى حكي عنه أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه، وليلة بنائه على أهله، وأنه سود فيما صنف وقيد وألف واختصر نحوا من عشرة آلاف ورقة"(٢). وأنه أسندت إليه وظائف القضاء في قرطبة وإشبيلية، والتطبيب في دار الخلافة بمراكش، والشورى والفتوى في الدين والدنيا كجده وأبيه.

١- ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٥٠.

٢- نفسه، ص:٥٠، التكملة، ص:٥٥٤.

وإذا كان أصحاب التراجم قد أغفلوا تواريخ مهمة ومحطات جديرة بالذكر في حياته فإن من حسن الطالع أن ابن رشد كان قد عني في كتبه بذكر تواريخ أحداث عايشها، فضلا عن تواريخ فراغه من تأليف كتبه، وفطن بنشريفة إلى أهمية تواريخ الفراغ من الكتب، فوظفها أحسن توظيف، وكانت محركة البحث له في فهم وتفسير وربط أحداث كثيرة مشتجرة متشابكة شكلت محطات ومنعطفات في حياة أبي الوليد، كما كانت إجابات شافية لعلامات استفهام كبيرة لأسئلة عديدة، سكتت عنها كتب التاريخ والتراجم.

عتبة التعليق:

أكثر بنشريفة من التعليقات على كثير مما ورد في أحداث سيرة ابن رشد، والتعليق عتبة من العتبات النصية، ومعناه إضافة عبارات حول موضوع معين سلبا أو إيجابا، والقصد منه إيضاح الكلام، والتعليق على الكلام يكون تعقيبا عليه بنقد أو بيان أو تكميل أو تصحيح أو استنباط، وقد يقصد به التفسير الطويل أو القصير لما ورد في النص منسوبا إلى مؤلف النص أو إلى غيره"[١]. وسنسوق لذلك أمثلة.

ولعل أبرز مثال على ذلك تنبهه إلى أقدم تاريخ في كتب ابن رشد وهو:(تلخيص السماء والعالم)، الذي يستدل فيه على كروية الأرض، يقول ابن رشد: "قد عاينت بمراكش عام ثمانية وأربعين وخمس مئة كوكبا لا يظهر من هذه البلاد، وذلك على الجبل المعروف بجبل درن فزعموا أنه سهيل"[٢]. فعلق بنشريفة على هذا التاريخ بأن ابن رشد كان عمره إذ ذاك ثمانية أو سبعة وعشرين عاما، فهل يكون وجوده وقتئذ بمراكش ضمن وفد من الوفود الأندلسية الواردة على عبد المؤمن في التاريخ المذكور؟ مع الأخذ في الحسبان أن أقدم وفد وفد على عبد المؤمن هو الذي استقبله في سلا أول سنة ٥٤٦هـ، وكان على رأس الوفد قاضي قرطبة أبو القاسم ابن الحاج الذي تكلم على دهش ووصف حال قرطبة فقال: "إن

[١]– معجم المصطلحات في اللغة والأدب، مجدي المهندس، كامل المهندس، مكتبة لبنان، ١٩٨٤، ص١١٢.

[٢]– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٥١.

(الفنش) دمره الله قد أضعفها". وابن الحاج هذا هو ولد القاضي الشهيد، وقد رجح بنشريفة أن الشاب ابن رشد كان ضمن الوفد(١).

كما عرض المؤلف قرائن من كتب ابن رشد تشير إلى وجوده في جبل درن في السنة المذكورة، وهو ما اقترن بوجود عبدالمؤمن في "تينمل" لزيارة قبر المهدي، ثم إن ابن رشد رجع إلى قرطبة التي شهدت سنوات صعابا بسبب حملات ابن مردنيش.

لقد استنبط بنشريفة هذه الأحداث من وحي صداها في كتب ابن رشد، كما في **المختصر في علم النفس** الذي كتبه في الخمسينيات، يقول: "وإن فسح الله في العمر وجلى هذه الكرب؛ فسنتكلم في هذه الأشياء بقول أبين وأوضح". كما شبه حاله في ذلك الظرف الصعب –وهو ينجز مختصر المجسطي– بحال الرجل "الذي يرى النيران تلتهم بيته فلا يرى إلا إنقاذ الأشياء النفيسة والأمور الضرورية"(٢).

ويتجلى في السيرة استقصاء بنشريفة للأحداث وتتبعه لها وربطه بعضها ببعض، وقد ذهب رينان إلى وجود ابن رشد في مراكش عام ٥٤٨هـ، وأن ذلك ربما كان باستدعاء عبد المؤمن إياه ليستعين به على تنظيم المدارس التي أنشأها بمراكش"، لكن بنشريفة استعان بالحوليات التاريخية التي ذكرت أن عبدالمؤمن بعد سيطرته على مدينة مراكش قرر تكوين أنصار متشبعين بعقيدة المهدي وفكره؛ فاستدعى مجموعة من صغار السن من "أبناء إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان" فانتخبوا من النجباء الحفاظ من كل بلد ووصلوا إلى مراكش صحبة أساتذتهم".

ويناقش بنشريفة ذلك فيبتدر بسؤال: هل كان –ابن رشد– من الحفاظ الذين تحدثت عنهم هذه الأخبار؟ ليجيب: لعل الجواب يوجد في مقالته المفقودة، وعنوانها: "مقالة في كيفية دخوله في الأمر العزيز وتعلمه فيه ما فصل من علم المهدي"،

١– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٥١.

٢– نفسه، ص:٥٢.

ومهما يكن من أمر فإننا نجد ابن رشد بعد أربع سنوات من التاريخ المذكور آنفا يشرع في التأليف، ومن حسن الحظ أنه كان يؤرخ الانتهاء من كل تأليف يؤلفه"[١].

واستعرض بنشريفة في مسرد -استخرجه من الببليوجرافيات الموضوعة في مؤلفات ابن رشد- سنوات فراغ ابن رشد من تأليف كتبه، واستنبط منها شروعه في التأليف بعد أربع سنوات من التاريخ المذكور، بل استطاع تأليف مؤلفات عدة في سنوات:(٥٦٣، ٥٦٥، ٥٦٧ ،٥٦٩، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٨٨). وهذا معناه أنه ظل مكبا على التأليف طوال أربعين سنة دونما توقف أو انقطاع، وهو ما يفسر ضخامة أعماله. حكى ابن عربي أنه لما توفي ابن رشد؛ وجعل التابوت الذي فيه رفاته على الدابة جعلت تآليفه تعادله من الجانب الآخر فقيل:

هــذا الإمــام وهــذه أعمالــه ياليت شعري هل أتت آماله؟[٢]

- كما ذكر ابن عبدالملك المراكشي أن ابن رشد استقضي بإشبيلية ثم بقرطبة. هكذا دون تاريخ؛ لكن بنشريفة يعرف من تواريخ بعض كتبه أنه فرغ من تأليفها بإشبيلية سنة ٥٦٥هـ، وسنة ٥٦٧هـ، وأشار في بعضها إلى أنه كان في إشبيلية وقت زلزال قرطبة عام ٥٦٦هـ، فهل كان خلال هذه السنوات قاضيا بإشبيلية أم كان قريبا من الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الذي أقام بهذه المدينة من عام ٥٦٦هـ إلى عام ٥٧١هـ؟ ويبدو أن تكليفه بتلخيص كتب أرسطو وتعيينه قاضيا في إشبيلية كان خلال هذه السنوات، وكان حينئذ في السابعة والأربعين من عمره[٣].

-سنة٥٦٧هـ دعي ابن رشد قاضيا، وصحب الخليفة يوسف لغزوة "وبذة" مع طائفة من العلماء والقضاة ذكر منهم ابن صاحب الصلاة في تاريخه ابن رشد أول مرة، وقد شغل الخليفة عن تسيير المعركة بالمذاكرة العلمية فكان ذلك سببا في فشل الغزوة[٤].

---

[١]- ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٥٣.

[٢]- السابق، ص:٨٣ نقلا عن الفتوحات المكية ٢: ٣٧٢-٣٧٣.

[٣]- نفسه، ص:٥٤.

[٤]- نفسه، ص:٥٤، ولمن بالإمامة، ص:٤٩٥.

-سنة ٥٧٧هـ عودة الخليفة يوسف من حركته إلى حضرة مراكش فوفد عليه الناس؛ فأمرهم بزيارة قبر المهدي وقبر عبدالمؤمن، وكان ابن رشد في وفد إشبيلية مع أبي بكر ابن زهر(١).

-سنة٥٧٨هـ استدعى الخليفة يوسف أبا الوليد ابن رشد إلى سكنى مراكش ليعالجه، وذكر ذلك ابن أبي زرع في حديثه عن أطباء الخليفة.

- سنة ٥٧٩هـ قام الخليفة بتعيينات جديدة للولاة والقضاة بالأندلس، وكان من بينها تولية ولده أبي يحيى قرطبة "برغبة أبي الوليد ابن رشد"، كما ولي الأخير قضاء قرطبة، ذكره ابن عذارى، وتتبع بنشريفة الخبر فوجد نظير ذلك عند ابن أبي زرع؛ لكن ابن الأبار يقول: "وولي قضاء قرطبة بعد أبي محمد بن مغيث فحمدت سيرته"(٢). وابن مغيث هذا توفي سنة ٥٧٦هـ. ولايظن أن منصب القضاء ظل شاغرا من ٥٧٦ حتى ٥٧٩هـ، ويرجح بنشريفة أن ابن رشد سمي قاضيا لقرطبة سنة٥٧٦هـ ثم استدعي إلى مراكش للمشاركة في تطبيب الخليفة، وجددت تسميته سنة ٥٧٩هـ.

-سنة ٥٨٠هـ حركة الخليفة يوسف لغزو "شنترين" التي أصيب فيها، وانسحب الجيش. وهناك مصادر ذكرت الأطباء دون إشارة إلى ابن رشد أو أبي يحيى صاحب قرطبة، وانتهت الأحداث بوفاة الخليفة، ليبدأ فصل جديد في حياة ابن رشد، حيث مات حاميه، وحيكت الدسائس والمؤامرات، وطفت خلافات بين أبي يحيى وأخيه على الخلافة التي فاز بها أخوه، فأصبحت صلة ابن رشد بالسيد أبي يحيى محسوبة عليه حتى بعد تعيين أبي يحيى واليا على إشبيلية، ونهايته المأساوية سنة ٥٨٧هـ. وبقي أبو الوليد في القضاء والإنجاز العلمي، وظل خصومه يكيدون له كيدا لا سيما بعد إعدام أبي يحيى، وبلغ الكيد ذروته سنة ٥٩٣هـ سنة محنة ابن رشد.

١- ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية:٥٤ والبيان المغرب (قسم الموحدين)، ص:١٤٨.

٢-السابق، ص:٥٥.

وخلاصة ما سبق أن بنشريفة استعمل تواريخ الفراغ من تآليف ابن رشد لتأريخ أحداث أو ربطها بأخرى، أو تواريخ مناصب تقلدها، فوظفها خير توظيف حينما استرشد بها في ترتيب وقائع، وتفسير أحداث في سيرة ابن رشد ومسيرته.

حول المحنة:

أظهرت المحنة أحداثا كثيرة في حياة ابن رشد، سجلتها الحوليات التاريخية، وفصل القول فيها مؤرخو ذلك العصر، وفي مقدمتهم أبو الحجاج يوسف بن عمر الإشبيلي، وابن أبي أصيبعة، وعبد الواحد المراكشي، وأبو مروان الباجي، وابن عبدالملك المراكشي، وابن عذاري وغيرهم، وقد وصفها بنشريفة توصيفا دقيقا، وفسر أحداثها "تفسيرا تفصيليا غنيا بالمعطيات المختلفة التي تبين حجمها"، كما ذكر في الخصوصية السابعة لسيرته، فوقف على طبيعة المحنة وبين مداها، وأظهر الأسباب التي كمنت وراء اندلاعها من خلال تعقب أقوال المؤرخين، وكيف ألقت بظلالها على أبي الوليد في أخريات عمره.

تعرضت دراسات كثيرة لأسباب المحنة إلا أن بنشريفة وضعنا أمام مجموعة منها مراجعا، ومشككا، ومصححا، ومرجحا للبعض تارة ومؤكدا لما أورده آخرون تارة أخرى، وكانت الوثائق سبيله إلى هذا الحشد والتكثيف، ويمكن عرض الأسباب بإيجاز من خلال عبارات بنشريفة نفسه، يقول: "إن المنافسات والخصومات بين الأعلام في ذلك العصر كانت من أسباب المحنة"، فالمحاسدات والمنافسات المعلنة والخفية بين ابن رشد والفقهاء والمتكلمين والقضاة، وكذلك المنابذة والمهاجرة والمنافرة بين أسرة بني ربيع الأشعري وأسرة بني رشد؛ كانت سيدة المشهد، إذ تطلع بنو ربيع إلى منصب القضاء في قرطبة، الذي احتكره آل ابن رشد زمنا طويلا، كما ظهرت "المنافسة واضحة"[١] بين ابن رشد وأبي بكر بن زهر، وإن كان لا يتضح من الكتاب إن كان ابن زهر أحد الكائدين له أم الساعين لإطلاق سراحه والعفو عنه[٢]، أو هما معا.

[١]– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٦٢.

[٢]– نفسه، ص:٢١٥.

كما يبدو أن كتابات ابن رشد قد ألبت عليه جهات عدة، فتصالح الأعداء عليه، ولعل كتبه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد)، و(الضروري في أصول الفقه)؛ قد جعلت الفقهاء ينقدونه لاسيما المالكية، الذين شعروا أنهم مهددون لا في سلطتهم فقط، وإنما في مصادر رزقهم. كما أن كتبه (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة)، و(فصل المقال)، و(تهافت التهافت) أثارت علماء الكلام لاسيما الأشعرية الذين ردوا بكتابات مضادة منها: (تحقيق الأدلة في عقائد الملة، ودفع الشبه المضلة، والأقوال المضمحلة بالحكمة البالغة والحجة الدامغة) لأبي عامر يحيى بن أبي الحسين بن الربيع من أسرة الأشعريين، كما أن ابن رشد كتب نقدا موجها إلى الحكم الموحدي في زمنه في كتابه (الضروري في السياسة) رغم إهدائه ليعقوب المنصور(١).

يرى عبدالواحد المراكشي–مؤرخ دولة المنصور– أن ثمة سببين: أحدهما خفي والآخر جلي، وانفرد بإيراد نصين طويلين يتعلقان بمحنة ابن رشد، أحدهما خبر المحنة كما ورد في تاريخ أبي الحجاج يوسف بن عمر الذي يرجعها إلى وحشة قديمة بين أهل قرطبة وابن رشد، جرتها المحاسدة والمنافسة وطول المجاورة، فدفعه ذلك إلى التقاط أشياء من مصنفاته تأولوا خروجه فيها عن سنن الشريعة، وإيثاره لحكم الطبيعة، وجمعوها في أوراق، وحملوها إلى الخليفة المنصور بمراكش سنة ٥٩٠هـ، ولكنه لم يلتفت إلى هذه السعاية؛ لانشغاله بالاستعداد لغزوة الأرك، فلما انتهت وحصل النصر مر الخليفة بقرطبة وأقام بها مدة، فجدد الخصوم سعايتهم، وكانت الحماسة الدينية الشعبية على أشدها ابتهاجا بالنصر في الأرك، وقرئ الكلام في مجلس الخليفة، وأول أشنع تأويل، وخرج أسوأ مخرج، فلم يكن المنصور عند اجتماع الملأ إلا المدافعة عن شريعة الإسلام، فصدر أمره بجمع الناس في المسجد الجامع بقرطبة، وقد تكلم القاضي أبو عبدالله محمد بن مروان فأحسن الكلام، ودافع

١– نفسه، ص:٧٤.

عن ابن رشد وأصحابه في الجملة، ولكن خطيب الجامع أبا علي حسن بن حجاج خطب في الناس، وشهر بابن رشد وأصحابه، وقال: إنهم مرقوا من الدين، وخالفوا عقائد المؤمنين، وقد صدر عن المنصور كتاب بهذا المعنى إلى مراكش وغيرها"(١).

أما عبدالواحد فرأى أن أكبر أسبابها عبارة وردت في شرح كتاب الحيوان؛ وهي قوله عند الحديث على الزرافة: "وقد رأيتها عند ملك البربر"، يقول بنشريفة: ومع ما قد يبدو من سوء أدب في هذا التعبير فإنه عادي في الواقع، فكلمة البربر لم تكن ذات حساسية أو معنى قدحي مستشهدا في ذلك بقول ابن حبوس المغربي:

أندلسي ليس من بربر يختلس الملك من البربر

لا تسلم البربر ما شيدت بالملك القيسي من مفخر(٢)

تعقب بنشريفة كلمة البربر في كتب صاحبه(٣)، وأنه يصرح بما صرح به غيره من الأندلسيين من كراهيتهم للبربر، ففي "تلخيص الخطابة" عند الكلام عن الفرق بين الغضب والعداوة يقول: "إن الغضب إنما يكون على الأشخاص، مثل: زيد وعمرو، أو أقوام محصورين بالعدد، وأما البغضة والعداوة فإنها تكون للجنس فإنا نبغض البربر ويبغضوننا"(٤). ويعقب المؤلف بقوله: "ثمة أدبيات متعددة من هذا المعنى ذكرتها في بعض دراساتي"(٥)، موضحا أن الاعتذار المنسوب إلى ابن رشد أو إلى صديقه أبي عبدالله الأصولي بأن عبارة البربر مصحفة عن "ملك البرين"، أنها " توجيه أدبي، وتلفيق لفظي اختلقه بعضهم"(٦).

يتتبع بنشريفة أقوال المؤرخين ويقابل بعضها ببعض وينقدها نقدا داخليا، ويظهر توجهات أصحابها، فيقول عن نص عبد الواحد: "ويفهم من ثناياه أن هذا

١- الذيل والتكملة٦: ٢٦-٢٨، ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٦١.

٢- زاد المسافر،ص:٣-٤. وابن رشد الحفيد،ص:٦٠.

٣- تلخيص السماء والعالم،ص:٢٧٥، ٢٧٦.تلخيص آثار العلوية، ص: ٩٠، ١٨٠.تلخيص الخطابة، ص:٣١٢.الكليات، ص:٥٠٢.ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٦٠.

٤- تلخيص الخطابة، تحقيق: د.م.س. سال، ص:٣١.

٥- محمد بنشريفة، منافرات العدوتين، مجلة كلية الآداب بالرباط، ع١، ص:٢٠.

٦- ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٦٠.

المؤرخ الإشبيلي كان متعاطفا مع ابن رشد، ومتأثرا لما حل به، فهو يقول في أعدائه: "والأعداء –لا كانوا– لا يسأمون من الانتظار ويرقبون أوقات الضرار"، ويقول: "فأدلوا بتلك الألقيات..الماحية لأبي الوليد كثيرا من الحسنات"، ويقول في ابن رشد وصاحبه ابن إبراهيم الأصولي: "ليس في زمانهما من هو بكمالهما ولا من نسج على منوالهما".

ويقابل ذلك بنص آخر فيقول: "ونجد عكس هذا تماما في الكتاب الذي حرره كاتب المنصور أبو عبدالله محمد بن عياش، فهو ينضح بالعداء والبغض لابن رشد وأصحابه، ومثله في ذلك خطبة قاضي إشبيلية أبي حفص ابن عمر، وأشعار ابن جبير. ثم صمتت هذه الأصوات ولم نسمع لها ركزا بعد تراجع المنصور وعدوله عن موقفه؛ فقد عفا عن ابن رشد، "ونزع عن ذلك كله، وجنح إلى تعلم الفلسفة، وأرسل يستدعي أبا الوليد من الأندلس إلى مراكش للإحسان إليه والعفو عنه"(١).

ويجمل بنشريفة القول في أسباب المحنة وقد رآها "متعددة، بعضها اجتماعي، يرجع إلى التنافس بين الأسر والتحاسد بين الأفراد، وبعضها الآخر ديني يتعلق بالاختلاف المذهبي والعقدي، وبعضها الآخر سياسي"(٢). وأظن ظنا أن بنشريفة لم تقنعه هذه الأسباب، لذلك أشار إلى عامل آخر؛ وهو غياب المؤسسات في القرون الوسطى الإسلامية؛ متمثلا في شخص الخليفة أو مزاجه وميوله، ومنه هذه الجهة فـ "الواقع أن ابن رشد كان ضحية عصر المنصور وسياسته المتقلبة"٣.

ولا ينساق بنشريفة وراء دعوات إقامة مشابهات بين محنة ابن رشد وما حصل لبعض الفلاسفة والعلماء في أوربا؛ مثل: جيودانو، وغاليليو، يقول: "إن الدارسين ولاسيما المحدثين قد بالغوا في الكلام على هذه المحنة ولم يتبينوا طبيعتها، وحسبوها من قبيل ما وقع لبعض رجال العلم والفكر في أوربا خلال القرون

١– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٦٢. والذيل والتكملة، ص:٢٥.

٢– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٧٤.

٣– نفسه، ص:٧٤.

الوسطى".لكنه يسير في الأمر بميزان الاعتدال، محاولا تنسيب المحنة من طريقين، هما: أولا: طريق القول أنها لم تطل أبا الوليد وحده، وإنما طالت مجموعة من النظار الذين كانوا لا يتعاطون بالضرورة لعلوم الأوائل، إذ كان بينهم الأصولي والفقيه والشاعر"(١).

ثانيا: من طريق القول إن الأمر متعلق بمحنة مؤقتة، أي أنها "كانت ضرورة عابرة"(٢)، أو "أمرا ظرفيا"(٣)، وهذه هي الإضافة التي قدمها بنشريفة في هذا السياق بعد تحليلاته الهادئة، لينتهي إلى القول بأن "محنة ابن رشد اقتصرت تقريبا على محاولة إثارة الرأي العام ضده"(٤)، و"عندما ينظر الباحث في هذه المحنة يجد أنها كانت أشبه بتمثيلية من بعض الوجوه، وكأنما اضطر إليها المنصور لإرضاء العامة مؤقتا"(٥)، ولعل تراجع المنصور هو أكبر دليل على أن المحنة كانت أمرا ظرفيا؛ إذ إنه بعد وصوله إلى مراكش "نزع عن ذلك كله، وجنح إلى تعلم الفلسفة، وأرسل يستدعي أبا الوليد من الأندلس إلى مراكش للإحسان إليه والعفو عنه"(٦).

وهكذا رأينا فيما عرضه بنشريفة عن أبي الوليد من وثائق أظهرت أن المحنة مفتعلة، حمل حطبها فئة باغية، لئام الخيم، نزر المحامد، بدافع الحقد والعداوة، فئة لا ترى الضوء ولا تريد أن تراه، وكان ابن رشد هو الرابح على المدى البعيد، وكانوا هم الأخسرين أعمالا على المدى القريب والبعيد، حين وشوا به رغبة في تكفيره لاستباحة دمه، فألصقوا به تهما لا هو منها، ولا هي منه.

حملة إعلامية:

أوضح بنشريفة في هذا القسم أن ابن رشد كان قد اشتغل بالفلسفة عقودا من السنين، ولم يعرف عنه فيها أنه قال –من خلال الفلسفة– كلمة سوء، غير أن ثمة

١– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٦٥.

٢– نفسه، ص:٦٦.

٣– نفسه، ص:٦٦.

٤– نفسه، ص:٦٧.

٥– نفسه، ص:٦٦.

٦– المعجب، ص:٣٠٦–٣٠٧. وابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٦٧.

تغيرا حدث في سنة ٥٩٣هـ، إذ انطلقت ألسنة الشعراء والخطباء، وانبرت أقلام الكتاب؛ ذما في الفلسفة والمشتغلين بها، وكان ذلك اتساقا مع الحملة المأمور بها، بعدما تصدرها منشور كله تهديد ووعيد صادر عن المنصور الموحدي؛ أنشأه كاتبه أبو عبدالله بن عياش إلى سائر بلاد الموحدين. وقد وصف بنشريفة المنشور بأنه "جمع بين براعة كاتبه في الإنشاء؛ وحنقه على ابن رشد وأصحابه، وهو أمر يحسه من أسلوب المنشور، ويستدل عليه بأبيات لأحد أنصار ابن رشد في هجاء ابن عياش يقول فيها:

وأما ابن عياش ومن كان مثله فضلوا جميعا بين تلك المسالك

ومات وماتوا حسرة وحسادة وغيظا، فقلنا: هالك في الهوالك

وظل بنشريفة يتعقب بواطن الفتنة حتى رأى خلل الرماد وميض نار في منشور لا يكتفي بالحكم على ابن رشد ونظرائه بظواهرهم؛ بل يتوغل فيتدسس إلى بواطنهم وسرائرهم، فالمنشور يصف أقوالهم بأنها:" ظاهرها موشح بكلام الله، وباطنها مصرح بالإعراض عن الله، ليس منها الإيمان بالظلم، وجيء منها بالحرب الزبون في صورة السلم"، ويقول المنشور في سلوكهم: "يوافقون الأمة في ظاهرهم وزيهم ولسانهم، ويخالفونهم بباطنهم وغيبهم وبهتانهم"(١). ويستشهد بنشريفة على صحة ما ذهب إليه بقول المؤرخ ابن عمر الإشبيلي الذي وصف الكتابات التي عرضت في صك الاتهام بقوله: "فقرئت بالمجلس وتؤولت أغراضها ومعانيها، وقواعدها ومبانيها، فخرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج"(٢).

وتحاسد الأقران أسلوب يحتجن ضعاف النفوس، ويكشف ما فيهم من لؤم النحائز، وارتكاسة الخيم الذميم، وقد حشد بنشريفة تلك الوثائق كلها وهو يعرض محنة أبي الوليد الذي أبى بأوه أن يسوقه سوقا إلى ما يأباه، وإن كان في ذرعه أن

١- ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٨٠.

٢- السابق، ص:٨١. الذيل والتكملة ٦: ٢٢٨.

يدفع عن نفسه لو سارت الريح رخاء وواتته الظروف، فترك حقه يتحيفه جور رصفائه، على أن موقفه وموقف قرنائه عجيب وغريب أخلت به تقاليد النذالة، وهي غير عسية بالمناجزة، موقف يشيع فيه الصغار، ومن هنا كان بأو أبي الوليد وصرامته.

ويتتبع بنشريفة كل ما كتب في هذه الحملة فيكشف عن مضامينها وإشاراتها ومدى اتساقها مع التوجه العام، ويعرض خطبة القاضي أبي حفص عمر السلمي الداعي فيها إلى "التمسك بالكتاب والسنة وتجنب الفلسفة وعلوم القدماء"(١). بيد أن بنشريفة لا يمر على الخطبة وقائلها أبي حفص مرور الكرام؛ بل يتوقف إزاءها؛ فيبين أولا أنها لم تكن خطبة جمعة؛ "لأنها تتألف من شعر ونثر"، وليست على المعهود من خطب الجمع. وثانيا أن قائلها كان من لدات ابن رشد وأقرانه، وقاضيا مشهورا مثله، وليس في أخباره ما يشير إلى عداوة بينهما، فما السر وراء خطبته هذه؟

ويظل بنشريفة يتعقب المظان فيقع على ترجمة لأبي حفص يرى فيها أن الشاعر الجراوي –وهو ممن شملتهم المحنة– كان كثير الاجتراء عليه –على أبي حفص– والنيل منه والتعريض به"(٢). ويرجح بنشريفة أن تكون هذه الخطبة من أسباب ذلك. المهم أنها وقعت في سياق الحملة ضد الفلسفة والمشتغلين بها، وابن رشد في القلب منها. ويرصد بنشريفة ما قيل من الشعر في هذه الحملة، فيختار منها أبياتا، ويذكر أن ابن عبد الملك أورد لابن جبير الرحالة كثيرا منها؛ حتى قال عنه: "وله في هذا الغرض كثير"(٣)، كما أن ابن جبير يسمي ابن رشد في كل شعره، ويتشفى حينا، ويسخر منه حينا، ويحرض عليه أحيانا أخرى، على عكس ابن عياش وأبي حفص الأغماتي اللذين لم يسمياه. يقول ابن جبير(٤):

١– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية ، ص:٨١. الذيل والتكملة ٨:٢٢٧.

٢– نفسه، ص:٨١. الذيل والتكملة ٨:٢٢٣.

٣– نفسه، ص:٨١. الذيل والتكملة ٥:٦١٢.

٤– نفسه، ص:٨١. الذيل والتكملة ٦:٣٠.

الآن قد أيقن ابن رشد أن تواليفه توالف
يا ظالما نفسه تأمل هل تجد اليوم من يوالف

ويتساءل بنشريفة عن إفراط ابن جبير في حملته على ابن رشد، ويجتهد في البحث عن سبب فيقدم تساؤلات، ويطرح افتراضات، ويصل إلى استنباطات مما بين يديه من أدلة وقرائن، ويرى أنه لو وصل إلينا ديوان ابن جبير المسمى بـ " نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان"(١)، وفيه "أزيد من مئتي بيت في قطع"(٢)، لربما أمكننا التعرف على سبب هذا الإفراط في شعره عليه. ويبدو أن ابن عبد الملك قد أخذ القطع التي قالها ابن جبير في ابن رشد من هذا الديوان(٣).

لكن بنشريفة حينما يبحث في حياة ابن جبير الرحالة يجده هو نفسه مأزوما بسبب محنته في عمله، ومحنة والده الوزير، وسجنه، وضياع ثروته، وغير ذلك؛ لكنه لم يقف على ما يشير إلى أية علاقة بين الرجلين غير أنه قدر التقاءهما في إشبيلية أو في غيرها؛ لكنه يراه أشد الشعراء المذكورين في المحنة عداء للفلسفة والفلاسفة وأكثرهم بغضا لابن رشد(٤)، فهل ظل ابن جبير على رأيه في ابن رشد أم لا؟ وقد وجد جواب ذلك في الفتوحات المكية عند ابن عربي الذي كان في مراكش عندما توفي ابن رشد، وشاهد نقل رفاته إلى قرطبة، ورأى كيف وضع جسده في تابوت على الدابة، وجعلت تآليفه تعادله من الجانب الآخر، وكان محمد ابن جبير وعمر ابن السراج حاضرين، فالتفت أبو الحكم إلينا -كما يقول ابن عربي- وقال: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه؟ هذا الإمام وهذه أعماله. يعني تآليفه، فقال ابن جبير: ياولدي؛ نعم مانظرت، لافض فوك. قال ابن عربي: فقيدتها عندي موعظة وتذكرة.

١- ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٨٢.

٢- نفسه، ص:٨٢.

٣- نفسه، ص:٨٣.

٤- نفسه، ص: ٨٥.

يعقب بنشريفة: ولعل أبرز عنصر في الخبر هو نظرة الاحترام إلى أبي الوليد وأعماله من لدن رجلين كان لكل واحد منهما رأي فيه وفي فلسفته(١). ومثل ابن جبير في موقفه أبوبكر محمد ابن قسوم الإشبيلي الذي يلحظ عليه بنشريفة تكرار ذكره ابن سينا في شعره ذاما الفلسفة دونما ذكر لابن رشد، ولا يقطع بقول فصل إن كانت هذه الأشعار قيلت في المحنة أم بعد ذلك في عهد المأمون الموحدي، ومنها قوله(٢):

ألا قبح الرحمن شر عصابة تدين بأقوال الغواة وتقتدي
تصدق ما قال ابن سيناء ضلة وتكذب قول الهاشمي محمد
أقاويل إفك ما لها من حقيقة تفيد سوى الكفر الصريح المجرد
ألا غضبة لله في نصر دينه تقد طلاهم بالحسام المهند

ومن شعراء المحنة كذلك أبو زيد الفازازي، وقد أورد له بنشريفة ثلاثة أبيات، كما أورد لابن حبوس الفاسي أبياتا من قصيدة له يدافع فيها عن الشريعة ويذم الفلسفة. هكذا وثق بنشريفة أحداث المحنة وتتبع من تولوا كبرها وأضرموا نارها من الشعراء والخطباء والكتاب، ورصد آثارهم وميولهم، وحدد طبيعة تفكيرهم، وبواعث مواقفهم، وتفسير اتجاهاتهم.

–شهادات:

خصص بنشريفة قسما في كتابه جمع فيه ورقات خطية(٣) تحوي نصوصا شعرية ونثرية أسماها **(شهادات)** لتكون تزكية لشارح أرسطو، رادة على منتقديه، أوردها بنشريفة معنونا لها بهذا العنوان فالاسم على المسمى، وما إيراد بنشريفة لها إلا أملا في أن تضيء بعض الجوانب من حياة ابن رشد الحفيد. فالشهادات عتبة من العتبات النصية، وتتبدى قيمتها في أنها دلائل وتأكيدات على العمل وإثبات لوجوده وترسيخ له، فهي نص مواز داخلي جاء أصيلا في نسيج العمل وفي سياقه،

١– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٨٣.

٢– نفسه، ص:٨٣.

٣– وضع صورها في آخر كتابه.

وتعد شهادات الآخرين عن العمل أو الشخص في ذاتها شهادة دالة على قيمته، وقد جمع بنشريفة ست شهادات: أولاها لصفوان بن إدريس يمدح ابن رشد وينتقد خصومه، وفيها نصان (سنشير إليهما) وثانيتها للمؤرخ أبي الحجاج يوسف بن غمر ومحنة ابن رشد، وثالثتها لعبد الواحد المراكشي وابن رشد، ورابعتها للقاضي أبي مروان الباجي، وخامستها لسهل بن مالك يرثي ابن رشد، وسادستها لمؤلف كتاب الاستبصار يسأل ابن رشد عن مسألة فلكية. وقد حبرها أديب ألمعي من معاصري ابن رشد.

وتعد شهادة صفوان بن إدريس التجيبي[1] في مدح ابن رشد وانتقاد خصومه في مقدمة تلك الشهادات، وتتألف من: رسالة لأبي بحر في الرد على بعض أهل إشبيلية الذي انتقد على القاضي أبي الوليد بعض أحكامه[2]. وقصيدة وجهها أبو بحر من الجزيرة الخضراء إلى القاضي أبي الوليد يتأسف على عدم تمكنه من السلام عليه قبل سفره من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء[3]، يقول فيها:

إلى مثل لقياكم تزم الركائب ونحوكم تحدى القلاص السلاهب
ونوركم يجلو الغياهب عندما تقيد أبناء السبيل الغياهب
ويثني عليك الركب ما أنت أهله وتثني المطايا تحتهم والحقائب
وأنت إمام العلم غير منازع وكتبك في أهل الضلال كتائب

ومقامة بليغة ماتعة أنشأها أبو بحر في مدح القاضي أبي الوليد ومدح بنيه[4].

ولا يكتفي بنشريفة بتحليل هذه النصوص التي يرى أنها تمثل دفاعا عن ابن رشد فحسب، بل يبحث فيما وراء ذلك فيلقي بسؤالين: ما سبب هذا الدفاع؟ وما

[1]- أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي (٥٦٠هـ - ٥٩٨هـ) مات دون الأربعين، وخلف ثروة أدبية ليس بين أيدينا منها إلا كتابه: زاد المسافر، وبعض أشعاره ورسائله، ذكر الدكتور محمد بنشريفة في الحاشية أنه جمعها وستصدرفي كتاب قريبا. ص٩٠.

[2]- نص الرسالة في: ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، من ص:١١٨- ١٢٢.

[3]- ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، والقصيدة في ص:١٢٤-١٢٥.

[4]- نص المقامة أوردها بنشريفة في: ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:١٢٨- ١٣٩.

سياقه؟ ثم يتولى الإجابة عن أولهما بأنه دفاع أملاه إعجاب التلميذ بأستاذه ووفاؤه له، وما كان بين أسرة بني إدريس المرسية وأسرة ابن رشد القرطبية من أواصر الصداقة وروابط المشيخة وتماثل الخطة، لا سيما أبو القاسم محمد بن أحمد التجيبي خال أبي بحر.فقد كان الخال أستاذا لابن أخته وحلقة أوصلته إلى ابن رشد، وأخذ عنه الفلسفة والفقه، ويتساءل بنشريفة هل أصابه شيء من رشاش المحنة التي شملت خاله أم لا؟

وثمة شهادات أخرى أوردها بنشريفة كشهادة المؤرخ أبي الحجاج يوسف بن غمر(١) وشهادة عبدالواحد المراكشي(٢)، والقاضي أبي مروان الباجي(٣)، والقاضي سهل بن مالك ورثائه ابن رشد(٤)، كما أورد بنشريفة شهادة مؤلف كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار عن مسألة فلكية(٥)، والكتاب ألف في عهد الموحدين، ويندرج في كتب المسالك والممالك، منسوب إلى مجهول، وإن كان بنشريفة ذكر أنه اهتدى إلى مؤلفه وهو محمد بن علي المعروف بابن عبد ربه الحفيد(٦).

هذا. وقد حشد بنشريفة عددا من العنوانات التي تؤصل سيرة ابن رشد بمجموعة من الإفادات، والتأثيرات، والمثالات الموثقة لحياة ابن رشد مما لا يتسع المقام لإيرادها لكنها تنبئ عن توثيق ما يتصل بحياة صاحبه متناولا إياها بالتعليق والتعقيب والتقويم. جمع بنشريفة في هذا القسم من السيرة ما يبين به أن ابن رشد كان يستعمل أمثلة مأخوذة من التراث العربي عموما والأندلسي خصوصا، وهو يستبدل أحيانا أمثلة أرسطو اليونانية بأمثلة عربية، وهذا موجود بكثرة في كتاب تلخيص الشعر وكتاب تلخيص الخطابة، تلخيص السماء والعالم، شرح أرجوزة ابن

١- ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية ، ص:١٤٢-١٤٤.

٢- نفسه، ص:١٤٦-١٥٣.

٣- نفسه، ص:١٥٦-١٦٤.

٤- نفسه، ص:١٦٦-١٧٠.

٥- نفسه، ص:١٧٢-١٧٦.

٦- نفسه، ص:١٧٢.

سينا، تلخيصات جالينوس، بداية المجتهد، فصل المقال، وإن كان أكثرها للأولين، وهذا يدل على استحضاره للتراث العربي والأندلسي، وقد اختار بنشريفة ثلاثة عشر مثالا ساقها مع تعليقات.

ملحقات:

ذيل بنشريفة كتابه بمادة توثيقية بالغة الأهمية أسماها "ملحقات"، وتكمن أهميتها أولا؛ في جدتها، إذ لم يسبق نشرها. وثانيا؛ أنها تعالج بعض الموضوعات التي تعرض لها الكتاب بشيء من التفصيل والتوثيق، وثالثا؛ أن أبعاد الصورة تكتمل عند القارئ؛ فتتكشف له علاقة ابن رشد ببيئته وعصره. أما الملحقات فتتمثل في: زجل ابن قزمان في مدح ابن رشد، وديباجة ابن رشد لشرحه أرجوزة ابن سينا، وديباجة ابن طملوس لشرحه أرجوزة ابن سينا، وقدوم السيدين والشيخ أبي يعقوب على قرطبة سنة ٥٥٧هـ، والشجرة الرشدية وتراجم بعض أعلامها.

ولعل أهم وثيقتين تتمثلان في ديباجتي شرحي ابن رشد وتلميذه ابن طملوس على **أرجوزة ابن سينا في الطب**، وقد ألفينا تجليات ذلك في تلقي الجمهرة من النظار في المغرب لهذا النتاج، أما شرح ابن طملوس؛ فإنه يعكس صورة زاهية – قوامها الحب والتقدير والوفاء– لعلاقة وثيقة ربطت التلميذ بأستاذه، ظهرت في عبارات رائقة صدر بها ابن طملوس شرح الأرجوزة، فوصف أستاذه بأنه: "رأس الحكماء، وفاضل الحكماء، وفاضل العلماء، الشيخ، الفقيه، الأجل، القاضي أبي الوليد محمد بن رشد رضي الله عنه". وما كان لبنشريفة أن يدعنا دون أن يضع بصمته على المشهد مبنية على بينات من النص؛ من أن ابن طملوس قد شرح النص بإيعاز أو بتحريك من ابن رشد(١).

١– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٢٣٣.

عتبة الحواشي (Foot notes)

الحاشية هي تعليقات وزيادات وإيضاحات تكون في صفحات الكتاب أو المخطوط على هامش المتن، وقد امتلأت بها الكتب القديمة حتى قامت شروح على الحواشي. وفي هذه السيرة لم يكن بنشريفة مكتفيا بنقل الترجمات من مصادرها والزج بها في متن كتابه فحسب، بل اعتنى عناية بالغة بالحواشي؛ حتى بدت مكتظة بكثرة ما أورده فيها من المعلومات، والتوضيحات، والتعقيبات، والتنويهات، والترجيحات، والإحالات، وكأنه لا يكتب سيرة بل يحقق مخطوطا، وهو أمر يطبع الكتاب بطابع التحقيق، فتكون صفة "وثائقية" لائقة به، وسوف نسوق لذلك مثلا:

– لما نقل تراجم ابن عبد الملك –على اختلاف رواتها وكثرتهم– كان يشير في الحاشية إلى المصدر من حيث اسم الكتاب وصفحته، كقوله: "ترجمة أبي القاسم أحمد بن رشد الوالد المتوفى سنة ٥٦٣هـ في الصلة،: ٨٥ والمعجم لابن الأبار:٤٦–٤٤ وبغية الملتمس:١٥٦".

– تنبيهه في الحاشية إلى أمور دقيقة بين الترجمات كقوله عن نسب ابن رشد في ترجمة ابن عبدالملك: "ينفرد بهذه السلسلة الطويلة نسبيا في نسب ابن رشد"(١). ثم إنه يتتبع إن كان ثمة تكرار لها في الترجمات الأخرى فيقول: وقد كررها في ترجمة والد أبي الوليد الجد (الذيل١:٢٢٨). وفي ترجمة ولد أبي الوليد الحفيد(الذيل ١:٣٧٥). كما أنه يشير إلى تواريخ الميلاد والوفاة للمترجمين.

–لما ذكر في المتن مصنفات ابن رشد ومن بينها:(مناهج الأدلة في أصول الدين)؛ حقق اسم الكتاب في مظان مختلفة؛ فأشار إلى أن اسمه في البرنامج: (المناهج في أصول الدين)، وفي عيون الأنباء: (منهاج الأدلة في علم الأصول)، وفي المرقبة العليا: (مناهج الأدلة في الكشف عن عقائد الملة). وقد طبع الكتاب أكثر من مرة"(٢). وكذلك كتابه (تلخيص في السماع الطبيعي)، في البرنامج: تلخيص السماع

١– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٢٦.

٢– نفسه، ص:٢٨ حاشية (٣٥).

الطبيعي، وفي عيون الأنباء: تلخيص كتاب السماع الطبيعي. انظر رسائل ابن رشد المطبوعة في حيدر أباد وتقسيم السماع الطبيعي المنشور في مجلة كلية الآداب بفاس،ع.٧.

–الحرص على إفادة القارئ ولفت ذهنه إلى كلمات ربما وقع فيها تصحيف أو تحريف كقوله عن كتاب ابن رشد "المسائل الطبية"، قال: في البرنامج: كتاب المسائل الطفولية (أو الطبولية) ولعلها الطفلية نسبة إلى ابن طفيل، وقد وردت الإشارة إليها في عيون الأنباء، ولا وجود اليوم لهذه المسائل(١). هكذا يظل بنشريفة يقلب الكلمات ويحقق أسماء الأعلام أو الكتب حتى يقدم للقارئ المعلومة صحيحة وموثقة.

عتبتا الخاتمة والتذييل:

عند موازنة منهج المؤلف في كتابة سيرة ابن رشد بمنهج الرشديين الآخرين نجد أن منهجه انماز وامتاز وبز، وعلى الرغم من أن القارئ يجد آثار ذلك التفوق مبسوطا في تضاعيف الكتاب من أوله إلى آخره، إلا أننا نجد حرص المؤلف على القارئ، فلا يعنيه في البحث عن مواطن التفرد أو إجهاد عقله بإحصائها، بل يسدي إليه يدا، فيجمعها له في الخاتمة، ليحصي له إحدى عشرة ميزة امتاز بها كتابه عن كتب سير ابن رشد الأخرى، وتكشف له عن السمات والخصائص التي تفردت بها هذه السيرة، وما ذكره بنشريفة في آخر الكتاب جاء متمما للعمل فهو خاتمة وفي الوقت ذاته هو تذييل، والتذييل عتبة من العتبات النصية، فهي إضافة تفسر العمل وتوضحه، وتنير الطريق وتكشفه، وتلفت انتباه المتلقي لما استغلق عليه، فيختط له طريقا يعيد من خلالها النظر في بنيات العمل وجوانياته والتجوال بين أزقته وحواريه. وما من شك في أن التذييل وقد أسماه بنشريفة (خاتمة) عتبة داخلية من العتبات النصية، وربط بين المقدمة والخاتمة؛ فقال: قلت في تقديمي الموجز لهذه المساهمة

١– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٣٣ حاشية (٣٣).

إن الغرض منها هو تقديم أكثر ما يمكن الحصول عليه من المادة التي تتصل بسيرة أبي الوليد ولا سيما إذا كانت مادة جديدة من شأنها أن تزيد الدارسين معرفة به" ثم أخذ يسرد خصوصيات هذه السيرة التي يقدمها ويظهر ما يميزها من غيرها، وذكر منها:

١– أنها تقف عند حدود السيرة ولا تتجاوزها إلى الغوص في عصر ابن رشد أو في آثاره.

٢– تحرص على جمع أقصى قدر ممكن من المادة المتعلقة بحياة ابن رشد وسيرته.

٣– تحرص على توثيق المادة حرصا شديدا؛ بنسبة كل قول إلى صاحبه ورد كل مادة إلى مصدرها.

٤– لا تترك اسما من الأسماء ولا علما من الأعلام الذين جرى ذكرهم دون الإحالة على مواطن تراجمهم والتعريف بهم.

٥– تشتمل على مواد جديدة وعناصر مجهولة فيما عرفه الباحثون من سيرة ابن رشد.

٦–تلقي شيئا من الضوء على نشأة ابن رشد وبدايته. ثم أضاف: "وسنتوسع في هذا عندما نحصل على نص ننتظره".

٧– تقدم تفسيرا تفصيليا للمحنة؛ غنيا بالمعطيات المختلفة التي تبين خفيها وتحدد حجمها.

٨–تقدم –لأول مرة– شهادات في الدفاع عن ابن رشد لبعض معاصريه، مما يجعلنا نعيد النظر في التصورات الشائعة حول موقف أهل عصره منه.

٩– يجد الباحث فيها بعض ما يدفع ما قيل عن إحراق كتب ابن رشد، وذلك بالاستدلال بأسمائها المدونة في كتب التراجم، ونسخها الخطية الباقية التي كتبت في عصره أو في وقت قريب من عصره([1]).

[1]– ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٣٢٤.

١٠- اشتمالها على لائحة مفصلة لتلاميذ ابن رشد، وهي مستخرجة من كتب التراجم وغيرها، وإشارتها إلى بعض تأثيرات أبي الوليد في عدد من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه. وكان من رأيي أن حركة الاسترداد هي من أسباب ضياع جزء من تراثه، وضعف تأثيره بين بني قومه، وهذه نقطة غفل عنها الذين تكلموا في هذا الموضوع.

١١- تبرز تواصل ابن رشد مع معاصريه[١].

وبعد؛ فإن بنشريفة يحفز القارئ على كشف خبيئات سيجدها في تضاعيف العمل ومكوناته وجزئياته لم يشأ سردها تعويلا على فطانة القارئ وذكائه في التوصل إليها، فلا يزال النص على تعدد قارئيه يسخو بمزيد من العطاءات، رسم بنشريفة من خلالها المنهج الأمثل والمنهجية الصحيحة لكتابة سيرة غيرية وثائقية.

[١]- ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ص:٣٢٤.

المراجع:

– ابن الأبار، تحفة القادم، إعداد وتعليق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٦.

– ابن رشد: الكليات في الطب، تح: سعيد شيبان وعمار الطالبي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٨٩.

– تلخيص آثار العلوية، تقديم وتحقيق:جمال الدين العلوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤.

– تلخيص السماء والعالم، تح: جمال الدين العلوي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٤.

– تلخيص كتاب الخطابة، تح: عبدالرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠. وطبعة أخرى تح: محمد سليم سالم، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٣.

– فصل المقال في بيان ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط.١، سنة ٢٠٠٧.

– ابن رشيق، العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، شرح وضبط: عفيف نايف حاطوم، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣.

– ابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الإبياري، سلسلة ذخائر التراث، ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٥م.

– ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة على المستضعفين، تح:عبدالهادي التازي، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت.

– ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، (٤ ، ٥، ٦) تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤–١٩٦٥، (١) تحقيق محمد بنشريفة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦،(٨) تحقيق: محمد بنشريفة مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط،١٩٨٢م.

– ابن عذاري، البيان المغرب – قسم الموحدين، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.

– ابن عميرة الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ط. مجريط ، ١٨٤٤.

– أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، تح: عبد القادر محداد، ط. بيروت، ١٩٣٩.

– أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، تح: محب الدين الخطيب، مكتبة السنة، القاهرة، طبعة سادسة، ١٩٩٢.

– أبي إسحاق الإلبيري، ديوانه، تح:محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط.١، ١٩٩١.

– إحسان عباس، فن السيرة، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٦،

– أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات الدراسات الإنسانية، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩١..

– إرنيست رينان، ابن رشد والرشدية، نقله إلى العربية،عادل زعيتر،القاهرة، دغر إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧.

– التبريزي،أبوعبدالله محمد بن عبدالله الخطيب العمري، مشكاة المصابيح، المكتب الإسلامي، بيروت، تح. محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥.

–جابر قميحة، منهج العقاد في التراجم الأدبية، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، ١٩٨٠.

– حسين فوزي النجار، التاريخ والسير، القاهرة، دار القلم، ١٩٦٤م.

– دومينيك أورفوا، ابن رشد طموحات مثقف مسلم، ترجمة: محمد البحري، المنظمة العربية للترجمة، نشر :مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١١م.

– شعبان عبدالعزيز، الببليوجرافيا أو علم الكتاب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

– صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، القاهرة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢.

– عبدالسلام المسدي، النقد والحداثة، مع دليل ببليوجرافي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٣.

– عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر –لونجمان، ١٩٩٢.

– عبدالواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، ط. القاهرة ١٩٦٣.

– عزوز علي إسماعيل، المعجم المفسر لعتبات النصوص، د. عزوز علي إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ٢٠١٩.

– فؤاد بن أحمد، ابن رشد الفيلسوف: السياق والامتداد، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، قسم العلوم والإنسانية والفلسفة، الرباط، المملكة المغربية.

– مجدي المهندس، كامل المهندس، معجم المصطلحات في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ١٩٨٤.

– محمد العبد، البحث عن المغزى تجارب في قراءة النص، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠١٢.

– محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.١، ١٤١٦هـ=١٩٩٥.

– محمد بنشريفة، ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية، ط.١، ١٩٩٩=١٤١٩هـ.

محمد بنشريفة، منافرات العدوتين، مجلة كلية الآداب، الرباط، ع١.

– المهدي بن تومرت، أعز ما يطلب، تقديم وتحقيق، عمار طالبي، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، سحب الطباعة الشعبية للجيش، ٢٠٠٧.

– يوسف الإدريسي، التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ/ ٢٠٢٥م.